

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة-أحمد زبانة- غليزان
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها



محاضرات في البلاغة القرآنية
ماستر تخصص لسانيات الخطاب

أ.د. ناعوس بن يحيى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تحدي القرآن للعرب وغيرهم:

جمهور أهل العلم بالقرآن الكريم على أن أقل قدر تُحَدِّي به الثقلان هو السورة أيًا كان مقدارها الكميّ ، فسورة "الإخلاص" وسورة "البقرة" في التحديّ سواء من أنّه قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]

وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38] وقد جاءت في كليهما (سورة) نكرة ، وفي هذا التنكير دلالة على العموم أيّ أيّ سورة طويلة أو قصيرة ، ولكنهم يذهبون أيضا إلى أنّ ما كان كالسورة في مقدارها الكميّ (ثلاث آيات) فأكثر يقع به التحديّ.

و نحن نعلم أن "القرآن ينزل عليه منجّما" ، وكان الذي نزل عليه يومئذ قليلا كما تعلم وكان هذا القليل من التنزيل هو برهانه الفرد على نبوته ، وإذن، فقليل ما أوحى إليه من آيات يومئذ ، وهو على قلته ، وقلة ما فيه من المعاني التي تنامت وتجمعت في القرآن جملة ، كما نقرؤه اليوم منطوق علي دليل مُسْتَبِينٍ قاهرٍ ، يحكم له بأنّه ليس من كلام البشر ، وبذلك يكون دليلا على أنّ تاليه عليهم ، وهو بشر مثلهم نبي من عند الله مرسلٌ ، فإذا صحّ هذا - وهو صحيح لا ريب فيه - ثبت ما قلناه أوّلاً من أنّ الآيات القليلة من القرآن ، ثمّ الآيات الكثيرة ، ثمّ القرآن كلّهُ أيّ ذلك كان في تلاوته على سامعه من العرب الدليل الذي يطالبه بأن يقطع بأنّ الكلام مُفَارِقٌ لجنس كلام البشر ، وذلك من وجه واحد ، وهو وجه البيان والنظم.¹

محاولات مسيلمة الكذاب:

1 - تقديم كتاب : " الظاهرة القرآنية " لمالك بن نبي : بعنوان : (فصل في إعجاز القرآن) بقلم محمود شاكر - ص: 27-28 - ط: دار الفكر - دمشق - 1405

سورة الفيل:

(الْفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ زُلُومٌ طَوِيلٌ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِ رَبِّنَا الْجَلِيلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ،
لَهُ ذَنْبٌ وَبِيلٌ، وَخُرْطُومٌ طَوِيلٌ)

سورة الضفدع:

(يَا ضِفْدَعُ بِنْتُ ضِفْدَعَيْنِ، نَقِي مَا تَنَقَّيْنِ، نِصْفُكَ فِي الْمَاءِ وَنِصْفُكَ فِي الطِّينِ، لَا الْمَاءُ تُكَدِّرِينَ،
وَلَا الشَّارِبُ تَمْنَعِينَ.)

سورة الخابزات

(والمهذرات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنا،
والخابزات خبزًا، والثارذات ثردًا، واللاقمات لقمًا)

سورة النساء

(إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ النِّسَاءَ أَفْوَاجًا، وَجَعَلَ الرِّجَالَ لَهْنَ أَزْوَاجًا، فَنَوَلَجَ فِيهِنَّ قَعَسًا إِيْلَاجًا، ثُمَّ نَخْرَجَهَا إِذَا
شَتْنَا إِخْرَاجًا، فَيَنْتَجِنَ لَنَا سِخَالًا نِتَاجًا)

(ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، ما بين صفاق وحشا)

الجماهر

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجُمَاهِرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَهَاجِرْ، وَلَا تُطْعِ كُلَّ سَاحِرٍ وَكَافِرٍ)

وبعد وفاة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، زادت آماله العريضة بأن يكون النبي، وواصل دعوته
الخبیثة في نفوس بعض البشر الضعيفة فتصدى له (أبو بكر الصديق) رضي الله عنه بجيش أرسله بقيادة
خالد بن الوليد، إلى (اليمامة) ليقضي على أتباع (مسيلمة) والمرتدين عن الدين فكان جزاء صاحبنا
القتل على يد وحشي بن حرب (قاتل حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم).

وهنا تتضح عظمة هذا الدين فمن كان ألد أعداء الإسلام بالأمس وقاتل حمزة (عم النبي صلى الله عليه وسلم) والذي مثل بجثته بعد الموت، نراه يوم اليمامة يقتل بيده رأس الفتنة (مسيلمة الكذاب) لعل الله يغفر له خطيئته "قتل عم النبي صلى الله عليه وسلم" بقتل مسيلمة الكذاب.

أما عن قرآن (مسيلمة) فهو مجرد أسجاع شعرية خرجت من كذاب ومدعٍ فما كان له (أسجاعه) وقرآنه أن يبقى في النفوس بعد موقعة (اليمامة) وطوي في صفحات الزمن البائد، وحينما يذكر بين الحين والآخر يكون مادة للسخرية والعجب ليس أكثر، أما القرآن الكريم الذي نزل على محمد رسول الله لا يزال باقياً إلى يومنا هذا يتلى أناء الليل وأطراف النهار وصدق الله العظيم حينما قال:

{ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } (17) { (الرعد)

المعنى القرآني : لا يقصد إلى معاني كلمات القرآن الكريم في حقلها المعجمي ووجودها الإفرادي ذلك " أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما من فوائد"²

المعنى القرآني ضربان :

(الاول) المعنى القصدي ، وهذا هو عين مراد الله سبحانه وتعالى ، وهو معنى توفيقى ليس لنا معه إلا الاجتهاد في فهمه حين يبلغنا بسند صحيح عن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه و سلم .

(والآخر) المعنى الإدراكي وهو كل ما يدركه أهل العلم والتدبر من النص القرآني وفقا لأصول الإدراك والتدبر وضوابطها وهذا الضرب (المعنى الإدراكي) هو مناط دراستنا ونستطيع أن نعرفه الآن:

« كل ما يدركه ويستنبطه أهل العلم من النص في سياق السورة المقالي والمقامي وفقا لأصول وضوابط الفهم والاستنباط »³.

² - دلائل الإعجاز - عبد القاهر - ت: شاكر: 539

³ - عزف على أنوار الذكر، محمود توفيق محمد سعد، ط 1 / 1424هـ، ص13. كتاب إلكتروني.

البلاغة الخاصة بالقرآن

الماهية ومراحل المقاربة

مقدمة :

إن نظرة سريعة في التراث الفكري الذي خلفته التفسيرات العديدة للقرآن الكريم تهدي إلى أن هناك عدة مناهج ومقاربات أُعتمدت في تأويل و تفسير القرآن الكريم كلُّ لها منطلقاتها و مبادئها التي ارتكزت عليها ، ومن هنا اختلفت النظرات و التأويلات.

و من المعلوم أن هدف كل التفسيرات، قديما وحديثا، هو الوقوف على المعنى القرآني الذي حملته تراكيبه في مختلف السور، وكلمة المعنى مشتقة من "عنيت كذا : قصدته وعنيت القرية : أظهرت ماءها

وعنت الأرض: أنبتت نباتا حسنا وتقول: عانيت الأمر: قاسيته وتعناه: تجشمه ، وعناه الأمر: أهمله. أما المعنى الاصطلاحي فهو التَّصَوُّرُ الذِّهْنِيُّ الْمُرتَبِطُ بِالْكَلِمَةِ اِرْتِبَاطاً بِالْمُطَابَقَةِ⁽⁴⁾.

معنى المعنى القرآني :

وقد اتفق العقلاء على أن الحديث عن المعنى القرآني لا يقصد إلى معاني كلمات القرآن الكريم في حقلها المعجمي ووجودها الإفرادي ذلك " أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما من فوائد "⁽⁵⁾.

و المعنى في القرآن الكريم ، كما بينت الدراسات القرآنية، على نوعين:

1. المعنى القصديّ: هو مراد الله تعالى من كلامه ، و الذي استنبطه الرسول صلوات الله وسلامه عليه من فهمه للقرآن بتوفيق من الله تعالى، لأنه صلوات الله وسلامه عليه مبين للقرآن، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد، وعلينا فهمه إذا وصلنا بالسند الصحيح.

2. المعنى الإدراكيّ: هو المعنى الذي توصل إليه أهل العلم و الاستنباط و التدبر وفق مناهج محددة ومعلومة ، وهذا ميدان بحثنا و عملنا هنا ، وقد عرّف بأنه: "كل ما يدركه ويستنبطه أهل العلم من النصّ في سياق السورة المقالي والمقامي وفقا لأصول وضوابط الفهم والاستنباط"⁶.

و قد حث القرآن الكريم ،في مجال المعنى الإدراكي، في كثير من نصوصه على ضرورة تدبره و الوقوف على مقاصده مثل قوله تعالى: { فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }⁷، وحثهم على التدبر : { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا

⁴ - راجع في هذا: التعريفات للسيد الشريف: 122، معجم النقد العربي القديم لمطلوب: 310/2+326، ومعجم المصطلحات العربية لمجدي وهبة: 374، علم النفس اللغوي لنوال عطية: 45، 42، 20، مفهوم المعنى لعزمي سلام: 24، سيكولوجية اللغة لجمعة يوسف: 125، دور الكلمة في اللغة لستيفان أولمان ترجمة كمال بشر: 61، اللغة مبناها ومعناها لتمام حسان: 24

⁵ - دلائل الإعجاز - عبد القاهر - ت: شاکر: 539

⁶ - ينظر: العزف على أنوار الذكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة، إعداد م: حمود توفيق محمد سعد ، الطبعة الأولى

1424هـ، ص13.

⁷ - سورة التوبة: 122.

آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ {⁸ ، وقال أيضا : { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }⁹ ، وقال سبحانه وتعالى : { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }¹⁰ إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا؛ فإن التدبر هو السبيل القويم للوقوف على معاني القرآن الكريم، إذ إن التدبر هو الهدف الأساسي من نزول القرآن كي يتذكر أهل النهى بما فيه من عظات، و عبر ، و توجيهات للنجاح في الدنيا و الآخرة.

لهذا؛ فإن الدراسة تحاول استنطاق التراكيب القرآنية لتلمس السمات البلاغية لهذا البيان ، وتحرص على أن تمزج النظر في السمات البلاغية بالنظر في لطائف معاني الوحي الكريم ، وما تحوي تلك التراكيب في بيان الوحي من دقائق، ورقائق، ولطائف معاني الهدى .

ماهية البلاغة القرآنية

إن القرآن الكريم كلام الله المعجز المنزل على سيدنا محمد صلى الله وسلم بواسطة الأمين جبريل عليه لينذر الثقلين بلسان عربي مبين ، هذا اللسان الذي اختير لإظهار الإعجاز البياني في كلام الله تعالى في جميع وجوهه، وأحواله، و تعبيراته لجعل البشر يقفون حائرين في هذا النسيج البياني المحكم و المبهر ، ويجعلنا نبحث عن أسرار هذا الإعجاز رغم أن ألفاظه، كما نعلم، هي نفس الألفاظ التي كان يستعملها العرب في شعرهم، و نثرهم، و التواصل فيما بينهم.

و في هذا يقول ابن خلدون: " إن القرآن نزل بلغة العرب - وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"¹¹.

و لكنك لو حاولت أن تنزع لفظاً من ألفاظه لتأتي بشبيه له مكانه لايسعفك المعنى و لا السياق، وفي هذا يقول " أبو محمد بن عطية الأندلسي " [ت: 546هـ] : " وكتاب الله ؛ لو نُزعت منه

⁸ - سورة ص: 22.

⁹ - سورة النساء: 82.

¹⁰ - سورة محمد: 24.

11 - مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الطبعة السابعة أمكنة وهبة ، القاهرة، ص326.

لفظة ، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لما وُجد ، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع ؛ لقصورنا عن مرتبة العرب - يومئذ - في سلامة الذوق ، وجودة القريحة ، وميّز الكلام "(12).

و بهذا، وغيره كثير، تحدى القرآن الكريم العرب، أصحاب ومؤسسي اللسان، ليأتوا بمثله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، لأنهم ، كما يقول عبد القاهر، أعجزتهم "مزايا ظهرت لهم في نظمهم وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كلِّ مثلٍ ومساق كلِّ خبرٍ وصورة كلِّ عِظَةٍ وتنبية وإعلامٍ وتذكيرٍ وترغيبٍ وترهيبٍ ، ومع كلِّ حجة وبرهان وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعُشرا عشرا ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أخرى وأخلق بل وجدوا اتساقا بھر العقول، وأعجز الجمهور ، ونظاما ، والتثاماً ، وإتقاناً ، وإحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول وخلدت القروم فلم تملك أن تصول «(13).

بل إنّ "أبا سليمان الخطابي " ، وهو أول من تحدث عن البلاغة الخاصة بالقرآن الكريم، بيّن أن حسن اختيار الكلمات وانتقائها و جعلها كاللبوس الحسن اللائق للمعنى هي عمود بلاغة الخطاب عامة ، فكيف بذلك في بلاغة القرآن الكريم ؟

و تأسيساً على ذلك؛ فإن " عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كلِّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإمّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة " (14).

12 - ابن عطية :المحرر الوجيز : ج1ص 39 - ط: المجلس العلمي بفاس - تونس : 1395

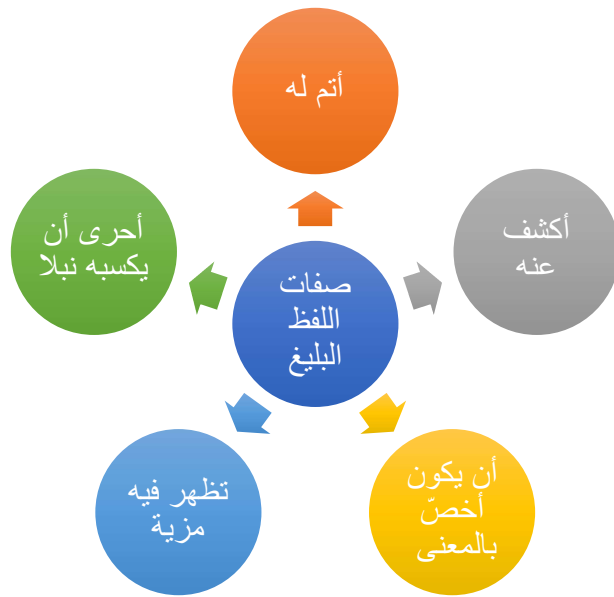
13 - دلائل الإعجاز :39

14 - الخطابي :بيان إعجاز القرآن: ص 29 - ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تح : محمد خلف الله وزغلول سلام - دار المعارف بمصر

بل إنه "لا معنى لهذه العبارات [البلاغة والقصاحة ..] وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعته والصفة وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتماها في ماله كانت دلالة ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية» (15).

ولو دقت النظر في قوله: "ويختار له اللفظ ... كيف أنه أوجب في اللفظ المختار خمس صفات

:



إن هذه الصفات لا تبرز إلا إذا وضع اللفظ في موضعه الذي يقبله السياق و يرتضيه المعنى و يختاره الذوق فإنك، في بعض الحالات، ترى "الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر" 16 .

15 - دلائل الإعجاز : 43

16 - دلائل الإعجاز : تح : شاكر ص 46.

و ذلك أن القرآن جاء متحديا لهم ،و من هنا فإنه من المعلوم " أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل، وأن للتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض، ومنازل يعلو بعضها بعضا، وأن علم ذلك علم يخص أهله، وأن الأصل والقدوة فيه العرب، ومن عداهم تبع لهم، وقاصر فيه عنهم، وأنه لا يجوز أن الذي نزل في الوحي، يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي وكان فيه التحدي، أم زادوا على أولئك الأولين، أو كملوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له .كيف؟ ونحن نراهم يحملون عنهم أنفُسهم، و يبرأون من دعوى المداناة معهم، فضلا عن الزيادة عليهم"¹⁷. في هذا المسعى فإن البدايات الأولى لهذا النوع من التفسير ،كانت مع الصحابي الجليل ابن عباس .فهو يشكل البداية الحقيقية ، والمحنة الأولى، في التفسير اللغوي ،من اعتماده على الشعر العربي ،ولغة العرب في التفسير ، وهي البدايات التي استفاد منها كثير من المفسرين ،واللغويين الذين جاءوا بعده .مما جعل كثيرا من الدارسين يعدون جهود ابن عباس في التفسير هي النواة الأولى في تفسير القرآن الكريم تفسيرا لغويا وأديبا¹⁸.

مراحل المقاربة البلاغية في تأويل القرآن الكريم:

من المعلوم الذي لا يخفى على ذي لب أن لغة القرآن لغة معجزة أبهرت، كما أسلفنا، العرب أهل البيان والفصاحة و البلاغة ؛بل وقفوا حيالها واجمين لأن هذه اللغة " التي نزل القرآن معجزا بها قادرة بطبيعتها هي أن تحتل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين : كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى، وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المبينة له من كل الوجه"¹⁹.

لهذا فإن عجز الإنس و الجن على أن يأتوا بمثله أصبح ظاهرا للعيان ،وفتح الباب على مصراعيه للتدبر وللتقرب من معانيه التي حملتها التراكيب في دقائقها، و فهم الرسائل التي حوتها لتصير منهاجا

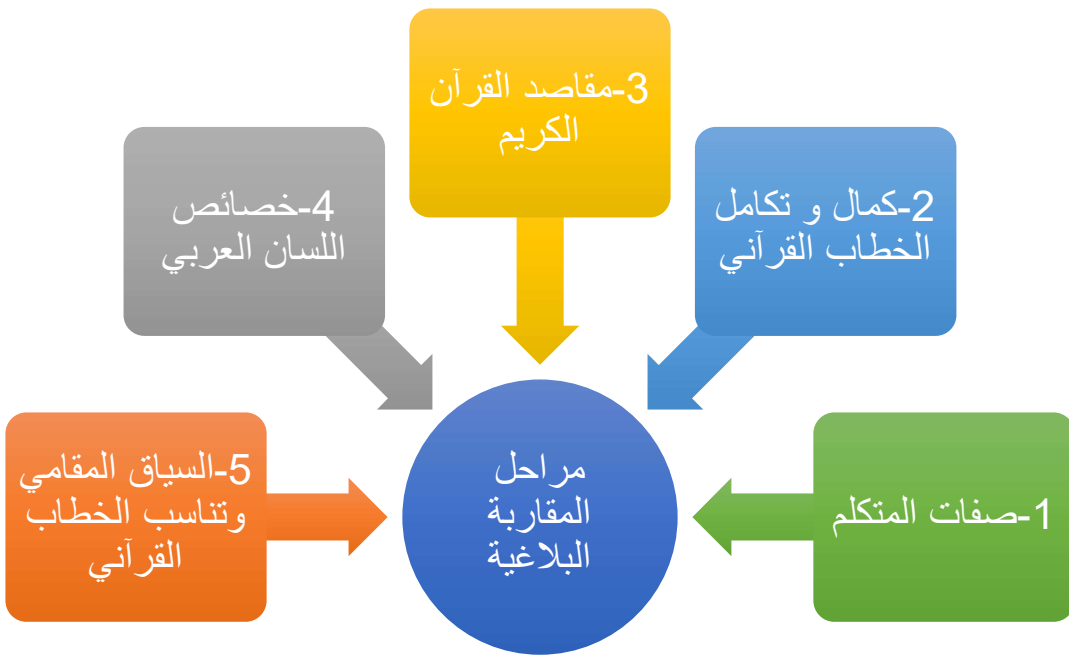
¹⁷ - الرسالة الشافية 579 ، ملحقه بدلائل الإعجاز .

¹⁸ - موسوعة مدرسة مكة في التفسير : تفسير ابن عباس: للدكتور احمد العمراني .دار السلام: 2011.

¹⁹ -مداخل إعجاز القرآن 164.

للحياة السوية و الناجحة، وفي ذلك يقول ابن مسعود : "مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ"²⁰.

و من هنا سنحاول تبيان، حسب مقدورنا وتقديرنا، المراحل المطلوبة في المقارنة البلاغية لإدراك
كنهه، رغم بعدنا البعد المطلق لفهم مراد الله تعالى، تلك الحقائق المخبوءة بين التراكيب
و المراحل هي:



فهذه المراحل التي بينها هذا المخطط تعتبر ركنا ركينا في المقارنة البلاغية للنص القرآني الكريم .

المرحلة الأولى صفات المتكلم :

و ذلك لأنَّ معرفة و تبيان صفات المتكلم تجعل القارئ يدرك الفرق الشاسع بين كلام الله تعالى و
غيره من الخطابات البشرية التي يظهر فيها حقيقة ضعف الإنسان؛ أما صفات الله المتكلم في الخطاب
القرآني الكريم فهي تعكس الصفات العلى لله تعالى فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي

²⁰ -أخرجه الطبراني في " الكبير " (9 / 146)، رقم (8665) من طريق زهير، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود، و ذكره الهيثمي في " المجمع " (7 / 168)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد، و رجال أحدها رجال الصحيح. و أخرجه عبد الله بن أحمد في الزهد رقم (532) و الطبراني أيضا (9 / 146)، رقم (8666) من طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن عبد الله.

ليس بعده شيء، وهي صفة ذاتية لله جلّ في علاه، والمعنى أنّ الله تبارك وتعالى لم يسبقه شيء في الوجود، فهو موجود قبل خلق الوجود، قال الله تعالى: "هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم"²¹.

ولهذا إذا وجدنا القرآن يأتي بصفتي الإتيان والمجيء، مثلاً، فهما غير صفات الإتيان و المجيء لدى المخلوقات، فصفة الإتيان وصفة المجيء هي الصفات الفعلية الخيرية، وهي ثابتة في القرآن والسنة، فالله سبحانه وتعالى يأتي ويجيء، فيجب أن نؤمن باللفظ والمعنى، دون السؤال عن الكيفية، قال الله -سبحانه-: "هل ينظرون إلّا أن يأتيهم الله في ظلّ من الغمام والملائكة وقضي الأمر"، وقال -أيضاً-: "وجاء ربّك والملك صفّاً صفّاً". فالإجابة هي صفة من الصفات الفعلية لله -تعالى-، وهي مأخوذة من اسم الله المجيب، فالله سبحانه وتعالى مجيب للدعوات، قال الله: "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان"، فهو الذي يجيب دعوات عباده، وهو الذي يجيب المضطرين، وهو الذي يقبل من الانابة من المستغفرين. الإحاطة، فالله تبارك وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط الأزمان، وأحاط الأماكن، فهو الأول والآخر، وهو الظاهر والباطن.

المرحلة الثانية كمال وتكامل الخطاب القرآني:

الخطاب القرآني كامل و متكامل كما وصف القرآن القرآن بذلك قال تعالى: "ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعدّوا"²² فقد ساق لنا القرآن الكريم من كل مثل عن هذه الحياة و حقيقتها و أسرارها جسدها تلك التراكيب القرآنية المحبوبة و المسبوكة سبكا يفوق القوى و القدر قال تعالى: "ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل"²³.

كل تلك المعاني التي لا تنتهي لها التي تفيض غزارة وقوة و حكمة حملها ذلك اللسان العربي المبين لها، قال تعالى: "وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا و صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا"²⁴.

21 - سورة الحديد الآية: 4.

22 - الإسراء: 41

23 - الكهف: 54

24 - طه: 113

و من هنا ؛ فإن أصح و أنصح الطرق في فهم القرآن الكريم "أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ،وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر "25،وهكذا يكمل القرآن بعضه بعضا في نسيج محكم منقطع النظير .

لهذا فإن المتأمل في الخطاب القرآن تأمل تدبر و استنطاق لمعانيه "يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب وعلى الإجمال والتبيين وعلى الإطلاق والتقييد وعلى العموم والخصوص ،وما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر ،وما جاء مطلقا في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى وما كان عاما في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى"26 .

المرحلة الثالثة مقاصد الخطاب القرآني:

لا يخفى على أي عاقل أن القرآن الكريم يحمل في ثناياه مقاصد كانت السبب الرئيس في نزوله و منها قوله تعالى: " يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا "27 .

لهذا لو تمعنا في بدايات سورة البقرة لوجدنا القرآن يأخذنا إلى المكانة السامقة التي تسمو فيها أرواحنا،وعقولنا، و حياتنا بأكملها عن طريق الهداية التي يضيء لنا القرآن الكريم طريقها ويعبده لنا حتى نصير من المتقين الذين اتصفوا بصفات الكمال و الجمال عن طريق الإيمان بالغيب ،و امتثال أوامرالله تعالى بالعبادة الصادقة التي تجعل الإنسان خليفة بالفعل الحسن و سمو الأخلاق الطيبة الراقية ؛قال تعالى: "الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(5) "28.

25-مجموع الفتاوى :13/ 363.

26 - التفسير والمفسرون:40/1.

27 - النساء :26- 28

28 -سورة البقرة:1-5.

هذا ولو ربطنا هذه البدايات بأم القرآن التي هي قوله تعالى في سورة الفاتحة "إياك نعبد وإياك نستعين" لفهمنا أن المعين على العبادة الحق هو الله تعالى الذي أنزل علينا الكتاب تبياناً لكل شيء، و توضيحاً لما التبس علينا عن قصد أو غير قصد، وذلك لأن القرآن الكريم أصله و أمه هو تلك الآية الكريمة.

المرحلة الرابعة خصائص اللسان العربي المميز :

و هي المرحلة التي تقربنا من طرائق العرب في الإبانة عن معانيهم وأغراضهم لأن القرآن نزل بلغتهم و على شاكلة تعبيرهم ، ولهذا وجدنا عبد القاهر يركز في كتابه على تبيان أسرار البلاغة و طرائق العرب في البيان من أجل أن يتوصل "إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف ، وتتفق ، ومن أين تجتمع ، وتفترق ، وأفضل أجناسها وأنواعها " ²⁹، وأن يتبع " خاصَّها ومُشاعها ، وأبيِّن أحوالها في كرم منْصِيها من العقل ، وفي تمكُّنها في نصابه ، وقرب رحمها منه ، أو بعدها - حين تُنسب - عنه ، وكونها كالخليف الجارى مجرى النَّسب ، أوالزَّيْم المُلصَق بالقوم ، لا يقبلونه ، ولا يمتنعون له ، ولا يذُبُّون عنه « (30).

و من هنا ؛وجب على من يريد أن يقترب من خصائص الأسلوب القرآني و يتذوق تراكيبه وألفاظه و يفهم معانيه أنه "لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً وأن تصفها وصفاً مجملاً وتقول فيها قولاً مرسلًا ، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول ، وتحصل ، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم ، وتعدّها واحدة واحدة وتسميها شيئاً شيئاً وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الأبريسم الذي في الديباج وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع « (31) .

29 - عبد القاهر : أسرار البلاغة - ص: 26- ط: شاكر .

30 - المرجع نفسه، نفس الصفحة.

يجمل بك أن تعيد قراءة مقالة "عبد القاهر" وأن تصغي إلى وقع أجراس حروفها وحركتها، وما أقامها عليه من التعادل الصوتي الذي يملأ الأذن ، فينفذ في القلب ، فيشغله بما حمله إليه ذلك الإيقاع الفخم من المعاني ، وكيف أن عبد القاهر يوظف ذلك إيصالاً لمراداته ومعانيه ومغازيه إلى قلبك، فيبعثه على أن يستغرق في لذة الفهم التي هي خصيصة الصفوة من أبناء آدم - عَلَيْهِ السَّلَام ، فمن ذاق عرف ومن عرف عشق السعي في التي هي أهدى وأقوم .

31 - دلائل الإعجاز- تح: شاكر ص 37

و لا نقصد بذلك القراءة المجملة لقواعد اللغة ومعاني النحو بل القراءة المتمرسية المستنطقة لدقائق اللسان العربي الذي يختزن من الكنوز العظيمة و لا ينالها إلا من تبحر و ألقى دلوه ليستخرج ماءها العذب الزلال، "لأنك لا تشفي الغلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملاً إلى العلم به مفصلاً، وحتى لا يقنعك إلا النظر في زواياه والتغلغل في مكانه ، وحتى تكون كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه ، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه إلى أن يعرف منبعه ومجرى عروق الشجر الذي هو منه" ³².

و لعل من أهم مباحثها مبحث الوصل والفصل، ومن ذلك أيضاً صحة التقسيم وهو تقسيم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، وصحة التفسير، وهو أن يورد معاني فيحتاج إلى شرح أحوالها... ³³ ومنها العكس وهو أن تعكس الكلام "فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول" ³⁴.

والعكس بهذا المفهوم استراتيجية يستعملها كثير من المتحدثين؛ لتعطيلهم وقفة عقلية لصياغة الجملة التالية، ومنها الرجوع وهو "أن يذكر الشيء ثم يرجع عنه كقول القائل: ليس معك من العقل شيء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك." ³⁵

والرجوع إضافة إلى علاقته بالتماسك الدلالي، هو استراتيجية حجاجية، ومما له علاقة بالتماسك الدلالي الاستطراد "وهو أن يأخذ المتكلم في معنى فبينما يمر فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأول سبباً إليه..." ³⁶.

32 - السابق: 260

33-ينظر: أبوهلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: تحقيق الدكتور مفيد قمبيحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1409هـ/ 1989م، ص 375 - 382.

34-المرجع نفسه: ص 411.

35-المرجع نفسه: ص 443.

36-المرجع نفسه: ص 443.

ومن تلك المباحث أيضاً: جمع المؤنث والمختلف...، والتوشيح، وشرحه أبو هلال العسكري بأنه ما كان مبتدأ الكلام فيه ينبئ عن مقطعه وأوله يخبر عن آخره³⁷، وغير ذلك من المحسنات اللفظية، والمعنوية التي جعلها القدماء كالحلية الزائدة مع أن لها دوراً مهماً في التماسك اللفظي والدلالي للنص.

ولكن ما يهمنا في هذه الدراسة هو مبحث الوصل والفصل، الذي له ارتباط وثيق بمصطلح بلاغة الخطاب من حيث التماسك النصي له، وقد تميّز عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في تناوله لهذا المبحث في إطار نظرية النظم؛ ولذلك فهو يقول في أهمية الوصل والفصل "اعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب"³⁸.

وينظر عبد القاهر الجرجاني إلى الوصل والفصل من خلال (العطف)، أو عدمه، كما ينظر عبد القاهر الجرجاني (471هـ) إلى عطف جملة على جملة أخرى معتمداً على مقولة المحل الإعرابي؛ لذلك فعطف الجمل عنده على ضربين:

أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، "وإذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد... فإذا قلت: (مررت برجلٍ خُلِّقه حَسَنٌ، وخُلِّقه قبيح) كنت قد أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى، وذلك الحكم كونها في موضع جرٍّ بأنها صفة للنكرة، ونظائر ذلك تكثر، والأمر فيها يسهل"³⁹.

والذي يشكل أمره هو الضرب الثاني: وذلك أن "تعطف على الجملة العارية الموضع الإعراب جملة أخرى، كقولك: (زيد قائم وعمرو قاعد) (والعلم حسن والجهل قبيح)... لا سبيل لنا إلى أن ندعي أن (الواو) أشركت الثانية في إعرابٍ قد وجب للأولى بوجه من الوجوه"⁴⁰.

يذهب عبد القاهر الجرجاني (471هـ)، بناء على ذلك، إلى أنه يجب مراعاة أشياء أخرى، وتلك الأشياء ترجع إلى المعاني؛ بحيث تكون جهة جامعة في مثل هذه الحالة.⁴¹

³⁷ - ينظر: المرجع نفسه، ص 452، وص 425.

³⁸ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركي الشنقيطي، المصدر السابق، ص 158.

³⁹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركي الشنقيطي، المصدر السابق، ص 153.

⁴⁰ - المصدر نفسه، ص 153.

⁴¹ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 153 - 154.

وفي الفصل بين الجمل يرى عبد القاهر الجرجاني (471هـ) أنه يكون في الجملة المؤكدة للتي قبلها، وكذلك حينما تختلف جهة الكلام من الحكاية إلى الخبر والعكس... ويذهب بعد ذلك إلى التفصيل في مواضع الفصل تفصيلاً دقيقاً يسنده آيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر العربي⁴² ويرى الفقي أن مصطلح التماسك مرادف لمصطلح التعليق عند عبد القاهر (471هـ)⁴³، وهذا قد لا يكون صحيحاً على إطلاقه وعمومه، ولا يساعد عليه النص المقتبس من الجرجاني عند الفقي، ولكن الأولى بالصواب، فيما أرى، عدُّ مصطلح (النظم) أو (الضم) عند عبد القاهر (471هـ) أقرب إلى مصطلح التماسك في المفهوم من مصطلح التعليق⁴⁴.

ولأجل ذلك فإن نظرية النظم لدى عبد القاهر الجرجاني (471هـ) من أهم النظريات في الجهد اللغوي العربي عند القدماء، وقد تناولها اللسانيون، والنقاد، والبلاغيون، والمفكرون بالدرس⁴⁵.

ولكن من المهم أن يعرف في هذا المقام أن عبد القاهر الجرجاني (471هـ) يقيم نظريته في (النظم) على النحو؛ إذ يقول: "ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا إن كنت وفيت حقه من النظر، وتدبرته حق التدبر، إلا أنك قد علمت علماً أبي أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوك مذهب أن ليس النظم شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم..."⁴⁶

والقاعدة في ذلك كله « لا بُدَّ لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل وعلى صحة ما ادعينا من ذلك دليل وهو باب من العلم إذا أنت فتحتة اطلعت منه على فوائد جليلة ومعان شريفة »⁽⁴⁷⁾.

⁴² - ينظر: المصدر نفسه: ص: 155-156.

⁴³ - صبحي إبراهيم الفقي علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: ، ج1، ص 78.

⁴⁴ - ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تأسيس نحو النص): ج1، المرجع السابق، ص: 75-76.

⁴⁵ - ينظر كتابنا: تحليل الخطاب القرآني في ضوء لسانيات النص دراسة تطبيقية في سورة البقرة، الطبعة الأولى 2014م، دار القدس العربي وهران الجزائر ص: 153.

⁴⁶ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركي الشنقيطي، المصدر السابق، ص: 335-336.

⁴⁷ - السابق: 41

المرحلة الخامسة السياق المقامي و الخطاب القرآني :

يعتبر السياق الخارجي في الحديث عن تنزل القرآن سببا رئيسا من أسباب تنزل السور و الآيات، و ذلك للتطابق مع الأحداث التي تمر بها الطائفة المسلمة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

لهذا فإنَّ النَّصَّ القرآني خطابٌ متعدّد الجوانب، ونصّ متماسك ومتجانس، ويتضمن أدوات إحالية تقوم بوظيفة الإحالة، منها أدوات الإحالة الدّاخلية ومنها آليات الإحالة الخارجية: فأسماء الإشارة وظروف الزمان والمكان والضمائر وأسماء الموصول وأزمنة الأفعال، وكل الأدلة التعيينية والوصفية والإشارية تعمل على ربط الخطاب القرآني بالواقع الزماني والمكاني الذي أحاط بنزوله باعتباره خطاباً⁴⁸.

« أَنْزَلَ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَكَانَ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَكَانَ يَنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ ...»⁴⁹ لذا كانت العرضتان الأخيرتان للقرآن الكريم في شهر رمضان الأخير من حياة النبي صلى الله عليه وسلم مطابقتين في ترتيب الآيات والسور لما هو عليه في اللوح المحفوظ في بيت العزة ، وبذلك تطابقت صورة الترتيب الكلّي للقرآن الكريم في أطورها التنزيلية الثلاثة ، فما بين أيدينا من صورته الترتيبية آياته وسورة هو ما عليه القرآن الكريم في اللوح المحفوظ وفي بيت العزة⁵⁰.

الخلاصة : ولقد حاولنا فيما سبق تبيان أهم المراحل التي تمر بها المقاربة البلاغية في فهم القرآن الكريم وتدبره بهدف إظهار جمالية الأسلوب القرآني مع الاعتماد على الأنماط اللغوية المتميزة و الأشكال الأسلوبية والتعبيرية الخاصة ، و المتنوعة التي يحفل بها النص القرآني، وبها تنكشف جمالية البيان القرآني في الجانب التعبيري والأدائي ، والتبليغي. فالقرآن الكريم اتخذ عدة وسائل و انفرد بعدة أشكال تخاطبية و تميز بعدة صيغ أسلوبية في التعبير والإبلاغ والأداء، واستعمل أنماطا متعددة في تركيب المفردات و بناء التعبير، والأشكال التي جاءت في النصوص القرآنية⁵¹.

⁴⁸ - ينظر: النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، المرجع السابق، ص 164.

⁴⁹ - المستدرک الكتاب السابق - حديث: 7/2878.

⁵⁰ - ينظر: مقدمتان في علوم القرآن : ص 39، وما بعدها

⁵¹ - النحو القرآني على ضوء لسانيات الخطاب للدكتورة هناء محمود إسماعيل. دار الكتب العلمية: 2012.

هذا وغيره مما جعل القرآن يسمى بالبيان العالي لأنه "لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك"⁵²، وهذا المنحى البياني والجمالي هو ما يعمل المفسر البياني على إظهاره وإبرازه واستكشافه في عمله التفسيري خدمة لأدبية النص القرآني⁵³.

وتلك المراحل هي المساعد الأساس للمفسر البلاغي لإبراز جمالية النص القرآني وسر تميزه عن غيره مع ضرورة التركيز في هذا التفسير على إدراك خصائص اللغة العربية ، لأن القرآن الكريم جاء حاملاً لأعلى مراتب البيان و الانجاز الكلامي ، لهذا وجب التمرس على فنون البلاغة من خلال دراسة الشعر الجاهلي . قال ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن: "وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب واقتناءها في الأساليب"⁵⁴.

⁵² -البيان و التبيين، 29/3.

⁵³ - أدبية النص القرآني : بحث في نظرية التفسير. لعمر حسن القيام. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 2012. يراجع أطروحة الدكتور احمد أبو زيد التناسب البياني في القرآن الكريم. وهي أطروحة منشورة ضمن قائمة منشورات كلية الآداب الرباط المغرب..

⁵⁴ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: 12

دور الدراسات القرآنية في نمو البلاغة العربية

دلائل الإعجاز أنموذجا

توطئة

يحاول هذا البحث تتبع نمو البلاغة العربية، باعتبارها عنصرا أساسيا من إعجاز القرآن الكريم، من خلال الدراسات القرآنية و خصوصا التي انكبت على تبيان سر الإعجاز في القرآن الذي أبحر العرب بفصاحته و سحرهم ببيانه، مما جعل العلماء المهتمين بذلك أمثال عبد القاهر الجرجاني الذي يحاول أن يجيب عن سؤال : ما سر أن لغة القرآن التي بهرت القوى و القدر ؟ من خلال كتابيه: اسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

فما علاقة هذين الكتابين بنمو البلاغة العربية؟

وأين يكمن تأثير دراسة لغة القرآن الكريم في خدمة البلاغة العربية؟

لغة القرآن الكريم: يوضح القرآن الكريم لنا في كثير من سوره أنه نزل بلسان عربي مبين ليتم الفهم و التدبر، و الغوص في معانيه، والوقوف على مرامييه التي هي المقصد العام من نزوله حيث قال

تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: 2] فالقرآني عربي اللسان ولن يستطيع فهمه بعيدا عن هذا اللسان، ولأنه " نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"⁵⁵.

وهذه اللغة العربية تتحدث عن خصالها و تدافع عن نفسها من الهجمات المتكررة التي تتعرض لها من أبنائها قبل أعدائها:

وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَاحْتَسَبْتُ حَيَاتِي	رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَأَتَّهَمْتُ حَصَاتِي
عَقِمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَوْلِ عِدَاتِي	رَمَوْنِي بِعُقْمٍ فِي الشَّبَابِ وَلَيْتَنِي
رِجَالًا وَأَكْفَاءً وَأَذْتُ بَنَاتِي	وَلَدْتُ وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِعِرَائِسِي
وَمَا ضِيقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ	وَسِعْتُ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً
وَتَنَسَّقِ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتِ	فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ
فَهَلْ سَاءَ لَوْ الْغَوَاصُ عَنْ صَدْفَاتِي	أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدَّرُ كَامِنِ
وَمِنْكُمْ وَإِنْ عَزَّ الدَّوَاءُ أَسَاتِي	فِيَا وَيَحْكُمُ أَبْلَى وَتَبْلَى مُحَاسِنِي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحِينَ وَفَاتِي	فَلَا تَكِلُونِي لِلزَّمَانِ فَإِنِّي
وَكَمْ عَزَّ أَقْوَامٌ بِعِزِّ لُغَاتِ	أَرَى لِرِجَالِ الْعَرَبِ عِزًّا وَمَنْعَةً
فِيَا لَيْتَكُمْ تَأْتُونَ بِالْكَلِمَاتِ	أَتَوْا أَهْلَهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ تَفْنُنًا
يُنَادِي بِوَادِي فِي رَبِيعِ حَيَاتِي ⁵⁶	أُيْطَرِّبُكُمْ مِنْ جَانِبِ الْعَرَبِ نَاعِبٌ

55 -مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الطبعة السابعة المكتبة وهبة، القاهرة، ص326.

56 - حافظ إبراهيم، الديوان.

لهذا فهذه اللغة خالدة بخلود القرآن الذي فقه العرب الأوائل ذلك فمنذ أن " بدأ اهتمامهم يتجه إلى المحافظة على القرآن الكريم، دستور العربية الخالد، فإذا به منطلق العقل العربي إلى دراسة نصوص اللغة ،ومتنها، وقواعدها النحوية و الصرفية ،الصوتية و البلاغية وإذا بالعلماء منذ عهد مبكر يبدؤون في اللمسات الأولى في العلوم العربية ،استهدافاً لخدمة النص القرآني الكريم " ⁵⁷ فخدمة اللغة خدمة للكتاب المنزل .

يخبرنا القرآن في كثير من الآيات البينات الواضحات على أنه نزل بلسان عربي مبين إذ يقول الله تعالى :﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ۝٢٨﴾ [الزمر: 28] ، وقال أيضا:﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝٣﴾ [فصلت: 3] فالدعوة إلى تعلم العربية يوصل إلى فهم القرآن ،و الوقوف على علم الكتاب الذي به التقوى و العلم الحقيقي .

بل يحثنا القرآن على نشر تعاليمه و تبيينها للناس قاطبة بلسان عربي مبين للحقائق و موضح للقضايا الأساسية التي بها فلاح الإنسان و نجاحه قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ۝٧﴾ [الشورى: 7] فالعقل كل العقل لمعاني القرآن لن يكون بلسان آخر، و إنما يكون بلسان عربي واضح و مبين ،و في هذا يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۝٣﴾ [الزخرف: 3] وفي قوله ايضا﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ۝١٢﴾ [الأحقاف: 12].

لهذا لما بحث العرب الأوائل في طرائق العرب في الإبانة بالبحث فيما خلفوه من شعر و حكمة وأمثال وخطب و غيرها وجودوا ثروة بلاغية عظيمة حتى قيل: "لو وجد الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام ... لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية"⁽⁵⁸⁾ و الفنون الخطابية الشيء الكثير.

57 - عبد الصبور شاهين : في علم اللغة العام مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط6 1989، ص10.

58 - حازم القرطاجني ،منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 68.

وظل علماء العرب ينقبون في التراث البياني ويستخرجون كنوزه العظيمة التي زخرت بها المؤلفات الكثيرة التي امتلأت بها المكتبة التراثية انطلاقاً من الخطابي والرماني والباقلاني والجاحظ و عبد القاهر وغيرهم، لأن البلاغة العربية بحر زاخر لا يمكن استخراج صدفاته العظيمة و الثمينة في وقت محدد بل "كيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار ."(59)

واستمر العمل متواصلاً على نفس الوتيرة منذ عصره صلى الله عليه وسلم إلى حين وفاته على هذه السنن المستقيم، وكذلك الصحابة ساروا على نفس المنهج الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان اللسان العربي عندهم صحيحاً محروساً لا يتداخله الخلل ولا يتطرق إليه الزلل⁶⁰ ولا يشوبه الدخن.

وكان الدافع الأساسي لهذا النشاط المعرفي والعلمي عاملين اثنين:

- 1 - العامل الديني: كان لابد من شرح وتفسير القرآن الكريم والحديث الشريف ليتمكن العرب والأعاجم من فهم النصوص الدينية، فاجتهد العلماء في شرح ألفاظ القرآن ومعانيها في مواضعها.
 - 2-اللحن اللغوي : تفتشت ظاهرة اللحن اللغوي بعد دخول الأعاجم وغير العرب وهو انحراف كلام العرب و قواعد النحو و الصرف⁶¹ وقواعد البيان التي سار عليها العرب الخُص و توارثوها.
- واستمر العلماء، وفقاً لهذا، ينهجون نهجهم الذي وضعوهم لأنفسهم في خدمة لغة القرآن حتى وضعت القواعد، وأُسست المدارس في شتى الفنون و المعارف، وعرفت في ذلك مناطق بتخصص في فن من الفنون حيث تمت أوليات الدراسة النحوية في مدينة البصرة، وشملت تلك الفترة التي تمتد من أبي الأسود إلى الخليل بن أحمد، وتلميذه سيبويه و كلاهما يعد أنموذجاً للثقافة العربية الجامعة⁶²، و يمثلان البداية الفعلية للنشاط العلمي الدؤوب.

59 - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء .ص88 .

60 -محمود سليمان ياقوت : منهج البحث اللغوي ، دار المعرفة الإسكندرية 2003 ص62

6- ينظر : صالح بلعيد : الصرف و النحو ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر 1998، ط1، ص134

7-ينظر : عبد الصبور شاهين : في علم اللغة العام ، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ، ط6 1989 ص11.

دور الدراسات القرآنية في نمو الدرس البلاغي

انطلاقاً من ذلك المنهج الذي رُسمت لبناته من أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وبينت ملامحه في عهد الصحابة حتى قال ابن مسعود: "مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُتَوَرَّ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ"⁶³. ومن هنا سار البحث العلمي الجاد يؤسس لنفسه قواعد صارمة لا يحيد عنها قيد أنملة.

واستقر في ذهن العلماء وأساطين البيان في شتى الأزمنة والعصور على أن "كتاب الله؛ لو نُزِعَتْ منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لما وُجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب . يومئذ . في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام"⁶⁴ و وضوح البيان.

بل ذهب بهم البحث إلى أن "للحرف /الصوت المفرد في القرآن الكريم تفرُّدٌ وتميُّز، من حيث المناسبة بين صوت الحرف المفرد ومعنى الكلمة التي هو جزءٌ منها، بل يمتدُّ هذا التميُّز والتَّفرُّد إلى توظيف الحركة المصاحبة للحرف في بيان المعنى المراد على نحوٍ متفرِّد".⁶⁵ والأمثلة على ذلك كثيرة.

فلو ضربنا مثلاً لذلك التفرد فإن لفظة (نضيد) في قوله تعالى: ﴿وَالنَّحْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: 10]، "ووقف على حرف الدال، استشعر السامع بهذا المدِّ الهابط (الياء) خلاف ما استشعاره بذلك المدِّ الصاعد الذي قَبْلَهُ في (بَاسِقَاتٍ)؛ إذ يستشعر بسمعه قبل بصره هذا التنضيد الذي في الطَّلْع، وقد غُطِّي بغطائه الرباني الجميل ذي الرائحة الذكية. ومن إichاء الأصوات المفردة في تعبير القرآن: إichاء (الهمزة) وإichاء (الهاء) في سياقيهما؛ إذ ورد كلٌّ منهما في سياق مغاير دلاليًا لسياق الآخر، وهذا يعود إلى تغاير صفة كل منهما من الناحية الصوتية، وإنْ كانا من مخرجٍ واحد هو

⁶³ - أخرجه الطبراني في "الكبير" (9 / 146)، رقم (8665) من طريق زهير، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود، وذكره الهيثمي في "المجمع

" (7 / 168)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح. وأخرجه عبد الله بن أحمد في الزهد رقم (532) والطبراني أيضا (9 /

146)، رقم (8666) من طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن عبد الله.

⁶⁴ - ابن عطية: المحرر الوجيز: ج1 ص39 - ط: المجلس العلمي بفاس - تونس: 1395

⁶⁵ - محمد محمد داود، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، في ضوء العلوم اللغوية الحديثة، كتاب الهلال سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال،

مصر. ص12.

الحنجرة؛ إذ الهمزة صوت شديد انفجاري، على حين عُذَّت الهاء من الأصوات الرخوة المهموسة الضعيفة"⁶⁶ وهذا غيظ من فيض.

إذ نجد أن العربي لم يكن يختار الصوت دون أن تكون له دلالة في الواقع فإننا " نجد صوتي (الصاد) في (صعد) و(السين) في (سعد) [مثلاً] قد اتفقا في خصائص وصفات معينة، واختلفا في أخرى. فمما اتفقا فيه أن كلاً منهما (صامت، أسلي، صفيري، ومهموس، ورخو)، واختلفا في أن (الصاد) صوت مطبق، مفخم، والسين صوت منفتح مرقق "⁶⁷.

فلو دققنا النظر في المعنى لوجدنا أن (صعد) تعني «الذهاب إلى مكان عالٍ، وتدل (سعد) على الثمن، وهي نقيض النّحس "⁶⁸، فهذا برهان قاطع على أن العربي لم يكن يختار الحروف عشوائياً وإنما يختارها وفق مدلولها الواقعي، فهذا يجعل اللسان العربي ثري ثراء منقطع النظير، من هنا فإن اللغة العربية هي لغة حياة.

وهذا يسوقنا إلى الحديث عن البلاغة التي اتصفت بها اللغة العربية ولبست لبوسها الواضح الماتع في غير تكلف أو مجح، لأن أساس البلاغة أن يصل معنك إلى السامع في غير تكرار أو تلكي، ولهذا فإن " عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمّا ذهب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة "⁶⁹. نزولها إلى منزلة الحضيض.

وهنا ندرك سر تفاضل كلام على كلام وتفوق بيان على بيان في وضع الألفاظ منازلها التي استدعتها المعاني، كما أسلفنا، وأن سبيل الكلام " سبيل ما يدخله التفاضل، وأن للتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض، ومنازل يعلو بعضها بعضاً، وأن علم ذلك علم يخص أهله، وأن الأصل والقدوة فيه

⁶⁶ - محمد محمد داود، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ص14.

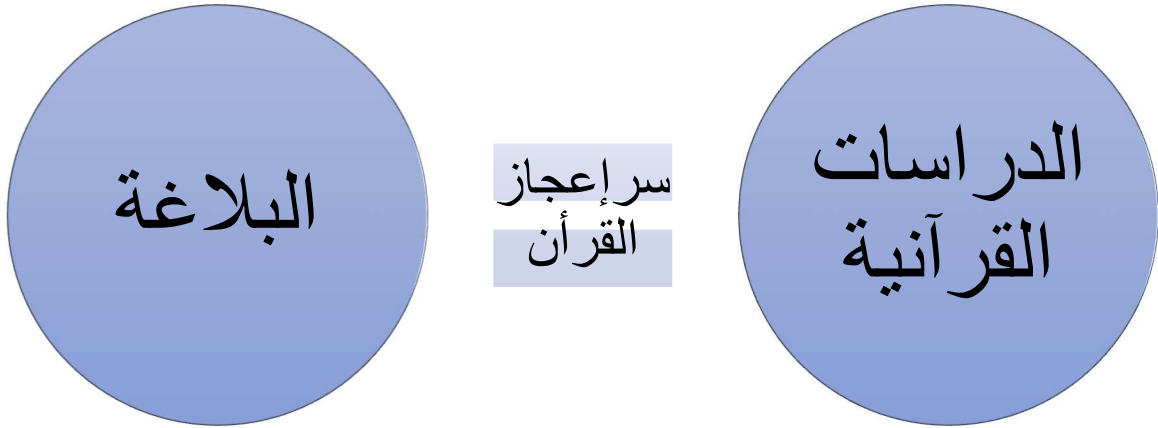
⁶⁷ - الأصوات اللغوية 75. 77.

⁶⁸ - لسان العرب : ابن منظور 3 / 252 (صعد) ، و 3 / 213 (سعد) .

⁶⁹ - الخطابي: بيان إعجاز القرآن: ص 29 - ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تح: محمد خلف الله وزغلول سلام - دار المعرف بمصر

العرب، ومن عداهم تبع لهم، وقاصر فيه عنهم، وأنه لا يجوز أن الذي نزل في الوحي، يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي وكان فيه التحدي، أم زادوا على أولئك الأولين، أو كملوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له . كيف؟ ونحن نراهم يحملون عنهم أنفسهم، و يبرأون من دعوى المداناة معهم، فضلا عن الزيادة عليهم⁷⁰.

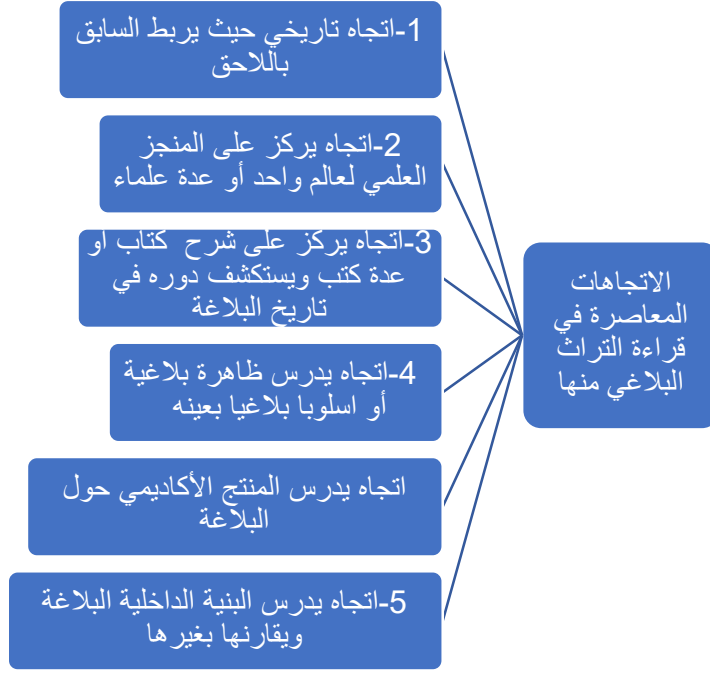
ما يمكن أن نخلص إليه في نهاية هذا المبحث هو أن الدراسات القرآنية كان هدفها الوقوف على سر تفوق كلام الله على غيره من كلام البشر، وهو نفس هدف البلاغة العربية وفي هذا يقول ابن خلدون: "واعلم أنَّ ثمره هذا الفن، إنما هي فَهْم الإعجاز من القرآن"⁽⁷¹⁾، وفي هذا المخطط توضيح وإجمال لذلك:



ولكي نقف على مراحل نمو البلاغة يجدر بنا أن نشير إلى أن هناك عدة اتجاهات معاصرة في دراسة البلاغة العربية نذكر منها:

⁷⁰ - الرسالة الشافية 579 ، ملحقه بدلائل الإعجاز .

⁷¹ - مقدمة ابن خلدون، باب البيان، ص521.



ومنها اخترنا الاتجاه الثاني حيث ركّزنا على المنجز العلمي في مجال الدراسات القرآنية ودورها في نمو البلاغة العربية مع عبد القاهر الجرجاني.

دور عبد القاهر في نمو الدرس البلاغي من خلال كتابيه (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز):

عمد عبد القاهر الجرجاني، وهو "واضع علم البلاغة"⁷²، إلى تبيان سر تفوق كلام على كلام، و قول على قول في كتابيه على التوالي حيث عكف في أسرار البلاغة على تبيان أسرار البيان العربي، ممهداً لذلك بتوضيح دور الكلام الذي ميّز الله به الإنسان عن سائر المخلوقات.

وفي ذلك أعطى أهمية لوظيفة الكلام عند الإنسان في شتى مجالات حياته، مركزاً على دوره في صقل معارف الإنسان وتقلبه في ميادين العلم لأن الكلام هو الذي "يعطي العلوم منازلها، يبين مراتبها، و يكشف صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويبرز مكنون ضمائرهما، وبه أبان الله تعالى الإنسان على سائر الحيوان"⁷³ ميزه عن سائر مخلوقاته لأن اللغة هي وعاء الأمة.

لذلك إذا أصيب الإنسان بعي في بيانه و عطب في لسانه ولم يستطع أن يبين عن مكنونات نفسه "لوقع الحي الحساس في مرتبة الجماد، وكان الإدراك كالذي ينافيه من الأضداد، و لبقيت القلوب

⁷² - عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، تح: محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى 2002، دار المعرفة، بيروت لبنان. ص 06.

⁷³ - عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، ص 13.

مقفلة على ودائعها"⁷⁴ ، ومن هذا المنطلق ميّز الله الإنسان حيث قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ﴾ [الرحمن: 1-4] حيث ربط ، سبحانه، تعليم القرآن بخلق الإنسان ، و تعليمه البيان دلالة واضحة على أن بالبيان نستطيع فهم القرآن ،و كأن الله خلقنا من أجل ذلك.

وعليه ففهم اللسان العربي طريق مؤدي إلى فهم القرآن لأنه نزل بلسان عربي مبين قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ﴾ [طه: 113] بل هو يوضح توضيحا لا يدع مجالا للريب ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنَّ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۖ﴾ [الرعد: 37].

تدلنا كل هذه الآيات، وغيرها، على ضرورة معرفة أسرار البلاغة العربية لأنه نزل على طرائق العرب في البيان وهذا ما يشفع لعبد القاهر سر تأليف كتابه أسرار البلاغة وتبيان خصائص اللغة العربية وأسرارها. وإذ ركّز أبما تركيز على تبيان سر البلاغة العربية الكامن في " أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده"⁷⁵ هذا هو سر الحقيقي للبلاغة العربية.

وأرسى قاعدة في ذلك على أن القائد للبيان في البلاغة العربية هي المعاني وليست الألفاظ، كما شاع عند الناس وخاصة أهل بعض العلم، لأنك " لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغي به بديلا، ولا تجد عنه حولا"⁷⁶ لأننا إذا رمنا البلاغة في اللفظ حدنا عن الطريق وسلكنا مسلكا يبعدنا عن الهدف الذي نرجوه.

ولهذا فإن الطريق الأسلم في البيان العربي، اللسان الإنساني بصفة عامة، هو أن تجعل الإفصاح عن مكنونات نفسك تقوده المعاني فإنك " لن تجد أيمن طائرا، وأحسن أولا و آخر، و أهدى إلى

⁷⁴ -- نفس المصدر، ص 13.

⁷⁵ -- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، تح: محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى 2002، دار المعرفة، بيروت لبنان. ص 15.

⁷⁶ -- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، ص 18.

الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعاني على سجيتها، و تدعها تطلب لأنفسها الألفاظ"⁷⁷ فهي تتخير لباسها التي تظهر به ووشيتها الذي تتزين به.

فليس للتكلف في البلاغة وظيفة إلا أن يجعل الكلام ممجوجا، والبيان ممقوتا فكم من شاعر أسقطه التكلف في الهاوية، وكم خطيب وقع في الغاوية لهذا ركّز عبد القاهر في كتابيه على ضرورة تصحيح المفاهيم عن سر البلاغة المتمثل في الكلام المقبول والمؤثر هو الذي تقوده المعاني و ما على المتكلم إلا أن يجد المعاني، و يتركها تختار ألفاظها التي تناسبها. ولهذا وجدناه في كتابه يركز على ضرورة التدقيق في سر البلاغة.

ومن هنا بنى كتابه على الخطة خادمة لفكرته التي أشرنا إليها فيما سبق:

كتاب أسرار البلاغة⁷⁸

⁷⁷ -- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، ص 21.

⁷⁸ -- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، تح: محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى 2002، دار المعرفة، بيروت لبنان.

في قسمة التجنيس وتنويحه	
في الاستعارة وتقسيماتها	
في الاستعارة المتحدة في الجنس والمختلفة في النوع	
اعتراض على تنزيل الوجوه منزلة العدم وعكسه ليس من حديث	
التشبيه للاشتراك في نفس الصفة وفي مقتضياتها	
في وجوه الشبه المنتزع من شيء أو أشياء	
في حال انتزاع الشبه من الوصف	
في مواقع التمثيل والتأثير	
الفرق بينا لتمثيل الدقيق والتعقيد	
هذا فن آخر من القول بجمع التشبيه والتمثيل جميعا	
الجمع بين الشكل وهيئة الحركة في التشبيه	
في الأخذ والسرقة وما في ذلك من تعليل وضروب الحقيقة والتخييل	
هذا فن آخر غير ما تقدم في الموازنة بين التشبيه والتمثيل	
الفرق بين الاستعارة والتمثيل	
في وقع مستعارا بحسب الحس وهو ليس كذلك	
في الأخذ والسرقة وما في ذلك من تعليل وضروب الحقيقة والتخييل	
بين المعنى الحقيقي والتخييل	
هذا نوع آخر في التعليل	
في تخييل بغير تعليل	
في الفرق بين التشبيه والاستعارة	
في الاتفاق في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة	
في حدي الحقيقة والمجاز	
في المجاز العقلي والمجاز اللغوي والفرق بينهما	
منه فيما قيل في عن استعارة وليس كذلك بل هو حقيقة	
هذا كلام في ذكر المجاز وفي بيان معناه وحقيقته	
في تقسيم إلى لغوي وعقلي	
في الحذف والزيادة وهل هما مجاز أم لا	

ومن هنا نفهم الهدف من تأليف الكتاب وهو الوقوف على أسرار البلاغة العربية ، ولهذا نراه ، و لكي يحكم حكما منصفيا بعيدا عن التسرع و الخابط خبط عشواء ، يشارك القارئ في بناء فكرة الكتاب فيقول له : " راجع فكرتك ، واشحذ بصيرتك ، و أحسن التأمل ، و دع عنك التجوز في الرأي ، ثم انظر ، هل تجد لاستحسانهم و حمدهم و ثنائهم و مدحهم منصرفا إلا إلى استعارة وقعت موقعها ، و أصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان ، حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى

السمع ، و استقر في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن"⁷⁹. هذه خلاصة ما يمكن أن يعلق في ذهن القارئ حول سر البلاغة العربية.

ثم انتقل بنا في دلائل الإعجاز نقلة أخرى لتبيان المزية التي جعلت لغة القرآن تقهر القوى والقدر، رغم أن العرب هو أهل البيان ونزل بلغتهم إلا أنهم وقفوا حيالها واجمين، " لم يدع في نفس بليغ منهم - ولو حك بيافوخه السماء - موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تصل "80 ووقفت متدبرة في أسرار إعجازه.

رغم أننا نعلم بأن القرآن نزل نزولا مفرقا حسب الأحداث إلا أنه كان يتحداهم أن يأتوا بمثله، فالنبي صلى الله عليه وسلم «كان هذا القرآن ينزل عليه منجّماً، وكان الذي نزل عليه يومئذ قليلاً كما تعلم وكان هذا القليل من التنزيل هو برهائه الفرد على نبوته، وإذن، فقليل ما أوحى إليه من آيات يومئذ، وهو على قلته، وقلة ما فيه من المعاني التي تنامت وتجمعت في القرآن جملة، كما نقرؤه اليوم منطوياً على دليل مُستبينٍ قاهرٍ، يحكم له بأنه ليس من كلام البشر "81 وهذا يزيد في عجزهم على أن يأتوا بمثله.

ويؤكد من جهة ثانية «على أن تاليه عليهم، وهو بشر مثلهم نبي من عند الله مرسلٌ، فإذا صحَّ هذا - وهو صحيح لا ريب فيه - ثبت ما قلناه أولاً من أن الآيات القليلة من القرآن، ثمَّ الآيات الكثيرة، ثمَّ القرآن كله أي ذلك كان في تلاوته على سامعه من العرب الدليل الذي يطالبه بأن يقطع بأنَّ الكلام مُفارقٌ لجنس كلام البشر، وذلك من وجه واحد، وهو وجه البيان والنظم."82 الذي ركّز عليه عبد القاهر.

ومن أجل أن يبين المزية بنى عبد القاهر كتاب دلائل الإعجاز⁸³ وفق الخطة الآتية:

79 - عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان ص 27.

80 - دلائل الإعجاز ص 39.

81 - تقديم كتاب : " الظاهرة القرآنية " لمالك بن نبي : بعنوان : (فصل في إعجاز القرآن) بقلم محمود شاكر — ط: دار الفكر — دمشق — 1405. ص: 27-28

82 - تقديم كتاب : " الظاهرة القرآنية " لمالك بن نبي : بعنوان : (فصل في إعجاز القرآن) بقلم محمود شاكر — ص: 27-28 .

83 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة 2004م، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة مصر.

1. مقدمة.
2. المدخل إلى دلائل الإعجاز من إملاء عبد القاهر.
3. كتاب دلائل الإعجاز.
4. خطبة الكتاب.
5. في فضل العلم وعلم البيان وحديث الشعر روايته.
6. سبب تأليف الكتاب والحديث عن الفصاحة والبلاغة ودليل والإعجاز وأن
النظم توحي معاني النحو والحديث عن فنون البلاغة من كناية واستعارة وقضية المزية.
7. الحديث عن التقديم والتأخير والاستفهام والنفى.
8. ودستور في التقديم والتأخير في الاستفهام والخبر.
9. قول في الحذف وضرب أمثلة في الباب.
10. فصل في القول على فروق في الخبر وكل ما تعلق بذلك مع ضرب أمثلة لذلك.
11. فصل في الذي خصوصاً وفيه أسرار جمّة.
12. فصل في فروق الحال وكل ما يتعلق بذلك.
13. فصل في القول في الفصل والوصل.
14. فصول شتى في أمر اللفظ والنظم والحديث أقوال العلماء في البلاغة وكلام
الجاحظ.
15. فصل المزية للمعنى المقتبس من النظم.
16. فصل الكلام ضربان والمعنى ومعنى المعنى. قضايا ذلك بالتفصيل.

17. فصل في المزية تكون ويجب بها الفضل، إذا احتمل الكلام في ظاهره وجها آخر تنبو عن النفس مع شرح جملة من الآيات.
18. فصل هذا فصل في المجاز مع تفسير قوله تعالى: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب...»
19. فصل بيان دقيق في الكناية وإثبات الصفة عن طريقها، وأمثلة ذلك.
20. فصل في إن ومواقعها.
21. القصر والاختصاص وفصل في مسائل إنما مع الغرق بين ما وإلا.
22. فصل وبيان، وإزالة شبهة في شأن النظم والترتيب وهي الحكاية.
23. فصل بيان الجهة التي يختص منها الشعر بقائله هي النظم والترتيب وتوخي معاني النحو.
24. فصل تمام القول في النظم وأنه توخي معاني النحو، والدليل ذلك.
25. تحرير القول في إعجاز القرآن، وفي الفصاحة والبلاغة وإبطال الصرفة وبيان أن النظم والاستعارة هما مناط الإعجاز فصل في الفصاحة بين المعنى واللفظ وغيرها.
26. الكلام الفصيح قسمان: قسم مزيته في اللفظ قسم مزيته في النظم.
27. القسم الأول الكنية والاستعارة والتمثيل على حد الاستعارة
28. القسم الثاني وهو الذي تكون فصاحته في النظم والرد على المعتزلة في اللفظ.
29. فصل هذا تقرير يصلح لأن يحفظ للمناظرة (مناقشة الاحتذاء والابتداء والنسق في إعجاز القرآن...)
30. خاتمة كتاب دلائل الإعجاز وتمام نسخة أسعد أفندي.

و يلاحظ القارئ لكتاب دلائل الإعجاز على أن عبد القاهر عمل جاهدا على أن القرآن مكان لا يعتريه التبديل و لا التحريف و لا التغيير لخصائص فيه حيث "تألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها، أو أبدل بغيره ، أو أقحم معه آخر، لكان ذلك خللا بينا في نسق الوزن، وجرس النغمة، وفي حس السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض و لرأيت لذلك هجنة في السمع، كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع اجزأؤه على ترتيبها ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولا، وخرج بعضها عرضا «⁸⁴، ولكن القرآن يبهرك منظره و يدهشك بيانه و يأسرك منطقته.

و لذلك إذا تأملنا في أصواته و انسجامها لوصلنا إلى أن القرآن "غربال للأصوات، ومصفاة لها أخرجت منها ما ينبو عنه السمع وما يثقل على اللسان، والناظر في هذا الكتاب الكريم يجد بين دفتيه أمثلة ناصعة للنقاء الصوتي والسلاسة وتجسيد المعنى عن طريق الصوت بصورة متميزة، بل متفردة لا نجد لها مثيلا في أرقى مستويات الفصاحة اللغوية لهذه اللغة»⁸⁵. الكريمة المعطاء.

من هنا لا نعجب إذا كان العرب الأوائل و هم أولو فصاحة و بيان وقفوا حيارى مشدوهين أمام "مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلِّ مثلٍ ومساق كلِّ خبرٍ وصورة كلِّ عِظَةٍ وتنبية وإعلام وتذكير وترغيبٍ وترهيبٍ ، ومع كلِّ حجة وبرهان وصفة وتبيان،"⁸⁶ وجودوا انسجاما و اتساقا.

بل دققوا النظر فيه فبهروهم "أنهم تأملوه سورة سورة ، وعُشرا عشرا ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أخرى وأخلق بل وجدوا اتساقا بھر العقول، وأعجز الجمهور ،ونظاما ،والثئاما ، وإتقاناً ، وإحكاماً «⁽⁸⁷⁾.زادهم تعلقا به و حبا له .

⁸⁴ - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط9، بيروت، دار الكتاب العربي، 1973، ص105.

⁸⁵ - محمد محمد داود، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، في ضوء العلوم اللغوية الحديثة، ص24.

⁸⁶ - دلائل الإعجاز :39

⁸⁷ - دلائل الإعجاز :39

و لهذا كان دور عبد القاهر، و هو يدرس البيان القرآني، أن يركز على دراسة المزية التي جعلته يبههم في نظمه و تماسكه في سبكه بتيان " أمر المعاني كيف تختلف، وتتفق، ومن أين تجتمع ، وتفترق ، وأفصل أجناسها وأنواعها " ⁸⁸، وكل مزاياها و خصائصها .

و بل وضح لنا ذلك صراحة في كتابه و هو يخدم لغة القرآن فهو يريد أن يبرز " خاصَّها ومُشاعها، وأبيُّ أحوالها في كرم منصَّيها من العقل، وفي تمكُّنها في نصايه ، وقرب رحمها منه ، أو بعدها - حين تُنسب - عنه ، وكونها كالحليف الجاري تجرَى النَّسب ، أو الزَّينم المُلصَق بالقوم ، لا يقبلونه ، ولا يَمْتَعِضُونَ له ، ولا يَذُبُّونَ عنه « ⁽⁸⁹⁾ فهنا تظهر لنا جليا دقة بحث عبد القاهر في بلاغة الخادمة للغة القرآن الكريم.

لا يكفي، كما يرى عبد القاهر، في علم الفصاحة " أن تنصب لها قياسا ما وأن تصفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولاً مرسلًا، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول، وتُحصِّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم ، وتعدّها واحدة واحدة وتسميها شيئاً شيئاً وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الأبريسم الذي في الديباج وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع « ⁹⁰ . و من هنا كان حكمك مبني على يقين و على دراسة ودراية.

و نجد أن عبد القاهر في كتابه تعمق في دراسة أسرار البلاغة القرآنية، و وقف على دقائقها، و نشر فنونها على بساط البحث و ميز دور العطف في النظم حتى قال فيه : " اعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب " ⁹¹. ليؤكد لك أن علوم البلاغة تركز على حسن السبك و براعة الانسجام و روعة الاتساق.

88 - عبد القاهر : أسرار البلاغة - ص:26- ط: شاكر.

89 - المرجع نفسه، نفس الصفحة.

90 - دلائل الإعجاز- تح: شاكر ص 37

91- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، المصدر السابق، ص 158.

ويخاطب القارئ المتمرس و يدعوه إلى التعمق أكثر قائلاً: «ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا إن كنت وفّيته حقّه من النظر، وتدبّرتّه حقّ التدبر، إلا أنك قد علمت علماً أبيض أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوك مذهب أن ليس النظم شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم...»⁹²

ثم يصل بنا في كتابه على أنه «لا بُدَّ لكلِّ كلام تستحسنه ولفظ تستجده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل، وهو باب من العلم إذا أنت فتحتَه اطلعت منه على فوائد جليّة ومعان شريفة»⁹³، لا تدرك إلا بالروية والتدبر.

وما يجدر بنا الإشارة إليه في نهاية المطاف على أن عبد القاهر تحدث عن البلاغة ببلاغة عالية و كأنه يضع القاعدة و يطبق لها في آن واحد لأنك إذا أعدت قراءة ما كتبه في هذا الفن ستجدك تصغي "إلى وقع أجراس حروفها وحركتها، وما أقامها عليه من التعادل الصوتي الذي يملأ الأذن، فينفذ في القلب، فيشغله بما حمله إليه ذلك الإيقاع الفخم من المعاني، وكيف أن عبد القاهر يوظف ذلك إيصالاً لمراداته ومعانيه ومغازيه إلى قلبك، فيبعثه على أن يستغرق في لذة الفهم التي هي خصيصة الصفوة من أبناء آدم - عَلَيْهِ السَّلَام، فمن ذاق عرف ومن عرف عشق السعي في التي هي أهدى وأقوم"⁹⁴.

كل هذه الدراسة التي قام بها عبد القاهر في كتابيه خادما بذلك اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم مبينا مزية لغة القرآن، وسر قهر القوى والقدر؛ جعل بذلك البلاغة تقف على قدميها كعلم مستقل واضح المعالم بين الأهداف يهتم بتبيان سر أن يصل الكلام إلى أذن السامع بدون مشقة أو معاناة.

⁹² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني:، المصدر السابق، ص: 335-336.

⁹³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المصدر السابق، ص 41.

⁹⁴ - محمود توفيق محمد سعد، العزف على أنوار الذِّكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة، ط1 1424هـ، القاهرة مصر، ص30.

ثم ما جاء بعده من دراسات بلاغية فإنما هي شارحة لما كتبه عبد القاهر في كتابيه: (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز) أو مطبقة لما وضعه من قواعد مثلما فعل الزمخشري في تفسيره الكشاف.

الخلاصة

نختم هذا البحث ببيان أن عبد القاهر الجرجاني استطاع من خلال كتابيه أن يجعل البلاغة تقف على سوقها، كعلم ثمرته أن يقف على سر إعجاز البيان القرآني مبينا أن المزية تكمن في النظم، و في تشابك المعاني بعضها ببعض حتى قال: "ذاك أنه ليس من عاقل يفتح عين قلبه، إلا وهو يعلم ضرورة أن المعنى في ضم بعضها إلى بعض، وتعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، لا أن ينطق بعضها في أثر بعض، من غير أن يكون فيما بينها تعلق و يعلم كذلك ضرورة إذا فكر، أن التعلق فيما بين معانيها، لا فيما بينها أنفسها"⁹⁵.

وهنا يخلص البحث إلى النقاط الآتية:

- الدراسات القرآنية مهدت الطريق لنمو البلاغة لأنهما يلتقيان في هدف واحد.
- خدمة اللغة العربية هي خدمة لكتاب الله تعالى.
- البلاغة عند عبد القاهر عرفت نضجا ونموا
- كل الدراسات البلاغية التي أتت بعد عبد القاهر اقتبست منه وتأثرت به.

⁹⁵ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط شاكر، ص 466.

قراءة حدائث لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم

مما لا يخفى على ذي لب؛ بأن الخطاب القرآني خطاب إلهي، لم يستطع أحد تسميته إلا كما سماه الله عز وجل في كتابه الكريم حيث سماه (الكتاب) متفرد عن غيره من الخطابات وفي كل مستوياته الصوتية، والمعجمية، التركيبية، والإيقاعية، والتداولية.

أصواته منسجمة متماسكة، ألفاظه واحدة لا تقبل التعدد وتركيباته وإيقاعاته مطلقة ولا نهائية، خطابه متفرد "ليس كمثله شيء" ورغم ذلك فقد أخذت عنه كل الخطابات والأجناس، وليس لأحد أن يأتي ولا بآية من مثله، ولقد تحدى القرآن بذلك قال تعالى: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إذ كنتم صادقين"⁹⁶.

و من ههنا وجب الاهتمام بتجديد دراسة القرآن لجعلها مواكبة للعصر، لأن المناهج تجددت فأضحى من الضروري تحديد الدراسات القرآنية بما يخدم كتاب ربنا، ولهذا سنحاول استنطاق أحدث مناهج علم النص الذي هو "لسانيات النص" وذلك للوقوف على وجوه تماسكه و انسجامه و اتساقه: من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص

⁹⁶ -سورة البقرة/ 23.

يحرص علماء اللغة النصيون على توضيح أهمية نحو النص من حيث كونه لا يقتصر على دراسة الجملة بل يهدف إلى دراسة الروابط بين الجمل وتتابعاتها ومظاهر انسجامها، محاولين إبراز أوجه الاختلاف بين نحو الجملة ونحو النص في النقاط الآتية:

1- تنتمي الجملة إلى نظام افتراضي (النحو)، في حين يعد النص نظاماً واقعياً، تكون من خلال الانتخابات من بين مختلف خيارات الأنظمة الافتراضية.

2- تتحدد الجملة بمعيار أحادي الذي هو "علم القواعد"، ومن نظام معرفي وحيد أي علم اللغة، في حين تتحدد نصية النص بمعايير عدة من مختلف الأنظمة المعرفية⁹⁷.

⁹⁷ - ينظر مدخل إلى علم لغة النص، تطبيقات لنظرية روبرت ديوجراندي وولفجانج دريسلر: د. إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد : الهيئة المصرية . العامة للكتاب، 1999 م، ص 10 .

3- تكون الجملة قواعدية" أو لا تكون جملة البتة. أما النص فلا تنطبق عليه معايير النصية بمثل هذه الحدة".⁹⁸

4- يتأثر النص بالأعراف الاجتماعية والعوامل النفسية وبموقف وقوع النص بوجه خاص في حين يضعف تأثير الجملة بهذه المؤثرات.

5- يستند استغلال الجمل إلى المعرفة القواعدية التابعة لنظام افتراضي له صفة العمومية، أما استغلال النص فيستند إلى معرفة خبرات بوقائع فعلية خاصة.

6- يقوم نحو الجملة "بدراسة الجمل معزولة عن سياقها أو الجملة المصنوعة، وهو يؤمن باستقلالية الجملة"⁹⁹، وهذا ما لا نجده في نحو النص، فهو يدرس العلاقات بين الجمل فالنصية تستمد من علاقة التماسك الذي تتعلّق أجزاؤه بعضها ببعض لتكون كتلة واحدة.

7- يعدّ النص حدثاً يوجهه المرسل إلى المستقبل؛ لإنشاء علاقات متنوعة، وتوصيل مضامين يعينها المنتج، ولا تقتصر على العلاقات القواعدية، في حين لا تُعنى الجملة إلا بالعلاقات القواعدية؛ ومن ثم فهي لا تمثل حدثاً.

8- تتخذ الجملة شكلها المعين وفقاً للنظام الافتراضي المعلوم، في حين تتشكل بنية النص بحسب ضوابط المشاركين والمستقبلين على حد سواء.¹⁰⁰

9- يهتمّ نحو الجملة "بالقاعدة ومعياريّتها، أمّا نحو النصّ أبعد ما يكون عن المعياريّة، فهو ينشأ بعد أن يكتمل النصّ"¹⁰¹.

⁹⁸ -لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب: د. محمد خطّابي: المركز الثقافي العربي، بيروت 1991 م، ص 13 .

⁹⁹ -نحو النصّ: اتجاه جديد في الدرس النحوي، د. أحمد عفيفي، ص73، المرجع السابق.

¹⁰⁰ -ينظر: النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة د. تمام حسان، المرجع السابق، ص 89

¹⁰¹ -نحو النصّ، د. أحمد عفيفي، المرجع السابق، ص74.

10- لا يبحث علم نحو الجملة في الجملة من البلاغة وأثره في السامع، "بينما نحو النص فجلاً عمله هو البحث في تلك الأمور"¹⁰². ولذلك في عهد علمائنا القديم ظهر نحو النص بشكل واضح لديهم عند تفسيرهم للقرآن الكريم، فهذا السيوطي (991هـ) ينقل عن ابن العربي (638هـ) "ارتباط أي القرآن بعضها البعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني"¹⁰³.

11- يتجاوز نحو النص "المقروء إلى المكتوب وبالعكس، فهو يرى الكلمات المستخدمة وعلاقتها بالمضمون، لذلك يبحث في مناسبة النص، وهذا ما لا تجده في نحو الجملة"¹⁰⁴.

12- إن النص نظام فعال ولهذا ينعت عند النصانيين بـ "Actual System" على حين نجد الجمل عناصر من نظام افتراضي Virtual System. والجملة كيان قواعدي Grammatical خالص يتحدد على مستوى النحو فحسب، أما النص فحقه أن يعرف تبعاً للمعايير الكاملة للنصية Textuality. وإن قيود القواعد المفروضة على البنية التحريرية للجملة في النص يمكن أن يتم التغلب عليها Be overdid in بواسطة الاهتمام بتحفيظات تعتمد على سياق الموقف Context – Dependent motivations فالعناصر التي يمكن فهمها من الموقف مثلاً من خلال الإدراك الحسي يمكن السكوت عنها أو اقتضاها بواسطة المتكلم دون ضرر يعود على الطاقة الاتصالية للنص. وهكذا لا ينبغي للصواب النحوي أن يعد قانوناً بل أن يعد تعويضاً Default أي معياراً يلجأ إليه فقط عند

¹⁰² - المرجع نفسه، ص 75.

¹⁰³ - الاتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط 2، دمشق دار ابن كثير، 1993م / ج 2، ص 977.

¹⁰⁴ - نحو النص: د. أحمد عفيفي، المرجع السابق، ص 76.

عدم وجود قرائن محددة، أو هو تفضيل **Reference** أي معيار يفضل على غيره حينما تتعدد الاحتمالات¹⁰⁵.

والحق أن هذا الفصل الحاد بين نحو الجملة ونحو النص لا يتناسب مع الواقع الفعلي لكونهما متكاملين؛ وذلك لأن النص ما هو إلا "مجموعة من الجمل، فكما أن الفونيم وحدة الكلمة، والكلمة وحدة الجملة، فالجملة وحدة النص، ويؤكد ذلك أن توسيع مجال علم اللغة ليشمل النصوص وتوظيفها في الاتصال لا يشكك مطلقاً في أهمية الوحدات اللغوية المعزولة "الفونيمات، والمورفيمات، واللكسيمات، والمركبات الاسمية والجمل"¹⁰⁶ بل على العكس يجب أن تستمر مثل هذه "الدراسات وتقوى حتى تقوم بدور في تشكيل نحو النص؛ ومن ثم لا يسوغ أن تنفصم العلاقة بين نحو الجملة ونحو النص، كما لا يسوغ أن يتداخل العلمان بمعنى أن يشتمل أحدهما على الآخر؛ ومن ثم ينظر إلى دراسات نحو الجملة على أنها تمهيد ضروري لدراسة نحو النص؛ ومن ثم فهما متكاملان¹⁰⁷.

العلاقة بين لسانيات الجملة ولسانيات النص :

تنازع وانفصال أم ترابط واشتمال؟:

وخلاصة لما سبق تبيانه، سنذكر أهم الآراء التي قيلت في العلاقة بين لسانيات الجملة ولسانيات النص وفق الترتيب التالي:

أ- الانفصال:

من خلال الدراسة لجملة من البحوث وجدنا أن بعض الباحثين ذهب إلى وجوب الفصل بين لسانيات الجملة ولسانيات النص باعتبارهما كيانين متقابلين منفصلين.

¹⁰⁵ - النص والخطاب والإجراء، روبرت دوبوجراند، ترجمة تمام حسان، المرجع السابق، ص 89.

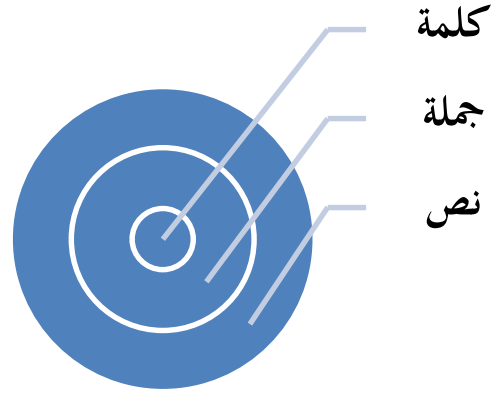
¹⁰⁶ - مدخل إلى علم اللغة النصي: فولفجانج هاينه من، ديتير فيهفيجر، ترجمة: د. فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، ط 1، 1999م، ص 7.

¹⁰⁷ - ينظر: المرجع نفسه، ص 8.

ب- الاشتمال:

في حين وجدنا أن فريقاً آخر ذهب إلى أنّ نحو النصّ يتضمّن نحو الجملة تبعاً لتضمّن النصّ للجملة، فكل ما دخل في موضوع لسانيات الجملة فهو داخل في موضوع لسانيات النصّ، والعكس غير صحيح، وعلى هذا فإنّ العلاقة بهذا الاعتبار تتحوّل من القيام على التّكامل إلى القيام على التّضمّن، أي تضمّن الكلّ - وهو نحو النصّ - للجزء وهو نحو الجملة وذهب **"Van Dijk"** 1972 المذهب نفسه.

وهذا ما يوضحه هذا المخطط:



وعليه، فإنه لا نستطيع أن نجعل الجزء يحوي الكل، وعلى هذا فالعلاقة هي علاقة احتواء الكل للجزء وليس العكس.

ج- استيعاب معكوس:

ورغم ما سبق، إلا أننا وجدنا رأياً ثالثاً يذهب إلى استيعاب الجملة للنصّ، والمنطلق فيه تقدير أفعال في البنية العميقة تمثّل فيها مكوّنات عمليّة القول، ففي بداية كلّ جملة أو نصّ يتمّ الانطلاق من تقدير فعل القول، فيصبح للنصّ محلّ في الجملة يتحكّم فيه فعل القول، ويترتب على هذا الاعتبار انضواء النصّ في شكل الجملة باعتباره مكوّنًا من مكوّناتها.

ومن هنا، يمكن، إذا لم نأخذ الرأي الثالث في الاعتبار، أن نرجع لسانيات النصّ إلى التّجاهين:
-أولهما ينطلق ممّا استقرّ في لسانيات الجملة ليتصدّى لدراسة الظواهر التي تتعدّى الجملة، ويدخل في

الاتجاه هاليداي (Halliday) ورقية حسن وإيزنبرغ (Isenberg) وبرنكر (Brinker) -وأما الثاني فيتناول النص من حيث هو كل، ويدرسه باعتباره منطلقاً، ويدرس تركيبه وصياغته. ويمثل هذا الاتجاه فان ديك (Van Dijk)، ويذهب هذا الاتجاه إلى أن تكون النص ليس إلا مرحلة تمهيدية للسانيات النص يتم بها عبور الحدود الفاصلة بين الجملة والنص. بين الخطاب والنص.

اتجاهات لسانيات النص

ومن أبرز الداعين إلى إقامة نحو النص، والذي بدأ معه الجهد النظري لإنشاء اللسانيات النصية الهولندي فان ديك "Van Dijk" الذي سعى، في جل دراساته، إلى "إقامة تصور متكامل حول" نحو النص "منذ (1972م) حيث ظهر كتابه " بعض مظاهر أنحاء النص " "Some Aspects of Text Grammar"، وظل كذلك حتى (1977م) مع كتابه " النص والسياق " "Text and Context"، وحتى كتاباته الأخيرة.

حيث بدأ ينطلق من تحليل "سيكو لساني" للخطاب توقفت القواعد واللسانيات التقليدية غالباً عند حدود وصف الجمل بمصطلحات المكونات والنص رابطاً بين الدلالة والتداولية. ¹⁰⁸ وبهذا استطاع إرساء قواعد متينة في تحليل الخطاب وفق المنظور النصي، متجاوزاً بذلك حدود الجملة.

ومما يلاحظ، فإن لسانيات النص استطاعت تجاوز الإطار اللغوي للتداخل مع علوم أخرى؛ ليصبح علم لغة النص علماً بين معرفي، فعلى سبيل المثال يمكن للمرء أن يجد اهتماماً بنحو النص عند تودوروف

¹⁰⁸ -انفتاح النص الروائي (النص - السياق): سعيد يقطين، الدار البيضاء، الطبعة 1، 1989م، ص 14.

على الرغم من المنطلقات الأدبية التي يشتغل بها¹⁰⁹، وقد رسّخ تون أ فانديك (Van Dijk) مفهوم بينية علم النص، أو علم اللغة النصي في كتابه "علم النص مدخل متداخل الاختصاصات"¹¹⁰.

وقد اتضح لفريق من العلماء، مع استمرار البحث لوضع قواعد محددة لما فوق الجملة، كان من بينهم تون. أ. فانديك (Van Dijk) اجتمعوا لهذا الغرض في إحدى الجامعات الألمانية أن "الفرق بين علم قواعد الجملة، وعلم قواعد النص أكبر شأنًا مما كان يعتقد قبلاً .."¹¹¹

وكان لزاماً على ما سبق، أن تتعدد مناحي النظر للنص، وتتعد اتجاهات الدارسين لمقارنته معرفياً ومنهجياً، ومن أجل الوقوف عند أبرز الاتجاهات في علم اللغة النص في العصر الحديث، واعتماد البحث وارتكازه هنا هو على تقسيم تلك الاتجاهات وفقاً لما تعتمده تلك البحوث في مقارنة النص من أدوات البحث اللغوي ومناهجه المختلفة.

وينبغي التنبيه، بداية، "أنه كثيراً ما يُوجدُ في الاتجاه الواحد في علم اللغة النصي تأثيرات لمدارس ونظريات مختلفة، فتجتمع أحياناً التأثيرات الدلالية، والتداولية، مع بعض مقولات النحو التحويلي عند (تشومسكي) التي استثمرت على المستوى النصي"¹¹².

ولذلك فسوف يتم تصنيف بعض النظريات النصية على أساس من التأثير السائد فيها كما سيتم الاكتفاء بالإشارة إلى بعض من أهم النظريات في كل اتجاه.

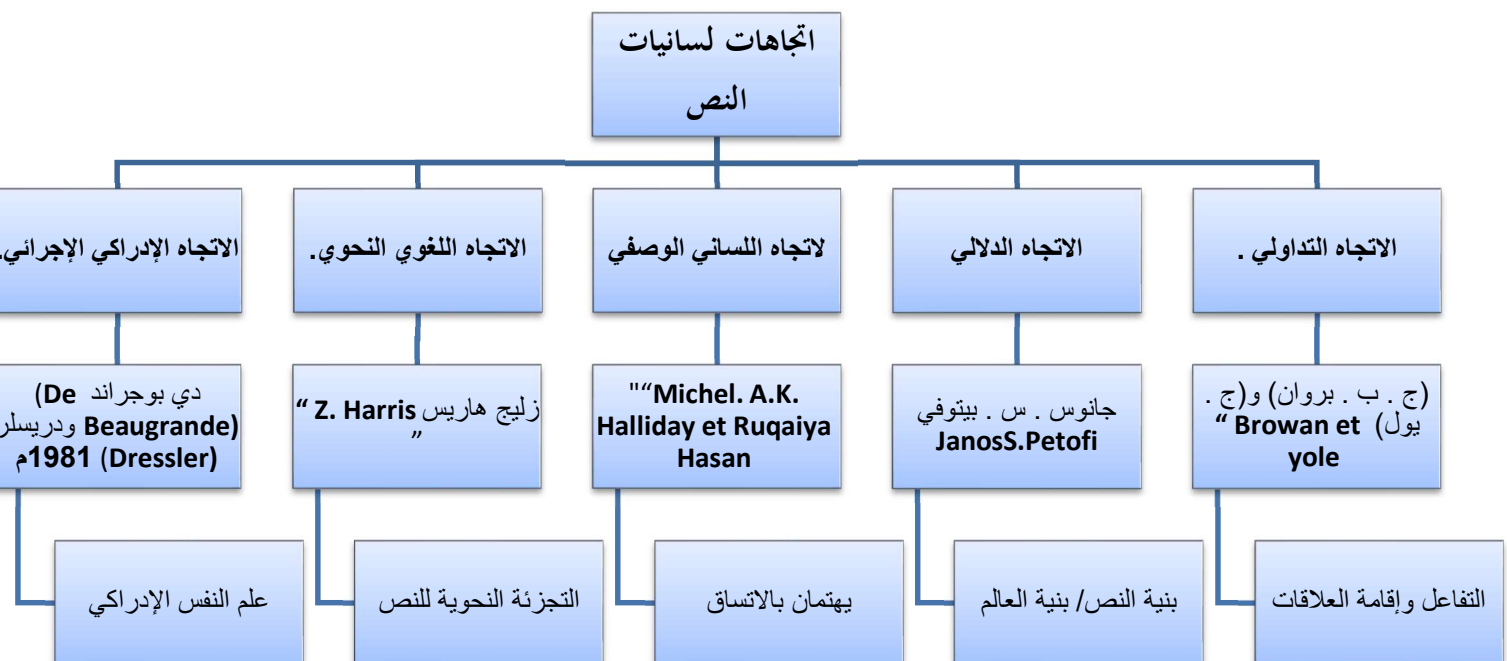
وسنحاول أن نجمعها في هذا المخطط التوضيحي:

¹⁰⁹ -النص، ضمن كتاب العلاماتية وعلم النص: جان ماري سشاييفر، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2004م، ص 122.

¹¹⁰ -ترجم هذا الكتاب إلى العربية وعلق عليه الأستاذ الدكتور سعيد حسن بحيري، وصدرت طبعته الثانية عن دار القاهرة في 2005م

¹¹¹ -مدخل إلى علم لغة النص (تطبيقات لنظرية روبرت ديوجراند وولفجانج دريسلر): إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، المرجع السابق، ص 49.

¹¹² -علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات): سعيد حسن بحيري، المرجع السابق، ص 86.



يستوعب الاتجاه الواحد منها أكثر من منهج بحثي، ولكنها جميعاً تقارب النص في إطار لغته، وهذا ما قد ينقذها من التفلت بعيداً عن النص.

أما أصلح اتجاه لمقاربة النص، فذلك مما يختلف باختلاف نوع النص، واختلاف الحيز الاستعمالي له، مضافاً إلى ذلك التفاوت العلمي عند الباحثين، وتفاوت القدرة على التعامل التنظيري والتطبيقي من باحث إلى آخر.

لهذا يدعو فان ديك (T. Van. Dick) إلى إعادة بناء الأقوال ليس على شكل جمل وإنما على شكل وحدة أكبر وهي النص، ويعني ديك (T. Van. Dick) بالنص "البناء النظري النحتي المجرد لما يسمى عادة الخطاب"¹¹³.

البناء النصي في القرآن الكريم

في تعريف سورة البقرة: يجدر بنا منهجياً، في البداية ، التعريف بهذه المدونة الكريمة (سورة البقرة) وتبيان أسباب اختيارها للتطبيق في هذا البحث. تعتبر البقرة، في النصوص النبوية، سنام القرآن، فعن ابن مسعود¹¹⁴، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: " إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ تَقْرَأُ خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ"¹¹⁵.

وسنام كل شيء أعلاه¹¹⁶، وسورة البقرة سنام القرآن " إما لطولها واحتوائها على أحكام كثيرة، أو لما فيها من الأمر بالجهاد، وبه الرفعة الكبيرة"¹¹⁷.

¹¹³ -لسانيات النص، محمد الخطابي، المرجع السابق، ص29.

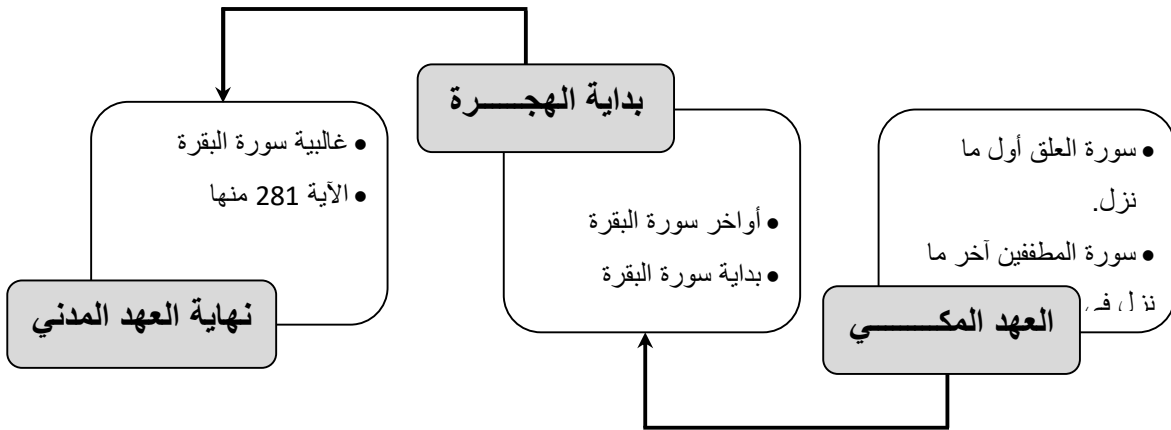
¹¹⁴ -ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد، (74/3)، والذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء(461/1)، حقق بإشراف، شعيب الأرنؤوط وأكرم البوشي. عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب (32هـ)، أبو عبد الرحمن الهذلي الإمام الحبر فقيه الأمة، من السابقين الأولين، أول من جهر بالقرآن، هاجر المهجرتين، وشهد بدرًا وجميع الغزوات.

¹¹⁵ -رواه الحاكم في كتاب فضائل القرآن، (561/1)، والبيهقي في شعب الإيمان (452/2)، رقم (3277)، وذكره الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة (135/2)، حديث رقم (588)، مكتبة المعارف، الرياض، د.ط، 1415هـ - 1995م.

¹¹⁶ -لسان العرب :ابن منظور الإفريقي، أبو الفضل جمال الدين بن محمد، مادة (سمن)، (306/12-308) المصدر السابق.

¹¹⁷ -تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: المباركفوري، أبو العلي محمد بن عبد الرحمن: (181/8)، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط2، 1406هـ - 1986م.

ويمكن أن نجمل مراحل نزول سورة البقرة في هذا المخطط:



وصفوة القول؛ فإن سورة البقرة هي أول ما نزل بعد الهجرة، واستمر نزولها حتى نهاية العهد المدني، حيث نزلت الآية (281) منها، والتي هي على الراجح آخر آية في القرآن، كما نزل قبيلها آيات الربا، فيما تقدمت خواتيم السورة سائرهما فنزلت قبيل الهجرة، لكن غالب آيات السورة قد نزل في بدايات الهجرة.

فإذا كانت سورة البقرة هي "أول سورة نزل من القرآن في المدينة، وهي أطول السور القرآنية جميعاً إذ تستغرق أكثر من جزءين من أجزاء القرآن، وفيها حشد من الموضوعات المتنوعة أكثر مما حوته أية سورة أخرى من سور القرآن"¹¹⁸.

ويبدو هذا الحشد، لأول وهلة، مجرد "انتقال من موضوع إلى موضوع بغير نظام! وذلك الذي يقوله الذين لا يعلمون، من المستشرقين وتلامذتهم "المثقفين" ولكن هذه السورة رغم طولها ذلك، ورغم

¹¹⁸—دراسات قرآنية: محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط 2، 1982م، ص 277.

هذا الحشد المتنوع كله في رباط محكم، بحيث يصبح له، على تنوعه، أهداف واضحة محددة، وشخصية موحدة"119.

و يحلو لبعض الباحثين المعاصرين أن ينفوا عن القرآن الكريم، بصفة عامة، وعن سورة البقرة، بصفة خاصة، كل مظاهر النصية الموحدة للقربن الكريم¹²⁰، وأنه ليس نصاً منسجماً بالمعنى الحديث الذي يستلزم درجة كبيرة من الترابط في مستوى التأليف اللغوي، فهم يرون بأن ليس في القرآن نص مترابط و متراص و لا منسجم بل حتى على مستوى السورة الواحدة؛ و ذهبوا في ذلك كل مذهب حتى إلى قولهم: بأن القرآن هو مجموعة من المدونات .

و من هنا؛ سنبين ،بتوفيق من الله،مظاهر انسجام و اتساق القرآن من خلال سورة البقرة التي اخترناها نموذجاً في هذه الدراسة.

مفهوما الاتساق والانسجام

مفهوم الاتساق:

نستهل تعريف الاتساق بذكر أهم المعاني التي أوردتها المعاجم العربية لهذه الكلمة، ومما جاء في ذلك "وَسَقَّ اللَّيْلُ وَأَتَسَّقَ؛ وكل ما انضم، فقد اتَّسَقَ. والطريق يَأْتَسِقُ؛ وَيَتَّسِقُ أي ينضم؛ حكاة الكسائي. وأتَّسَقَ القمر: استوى.

وفي التنزيل: "فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا أتسق"؛ قال الفراء: وما وسق أي وما جمع وضم"121.

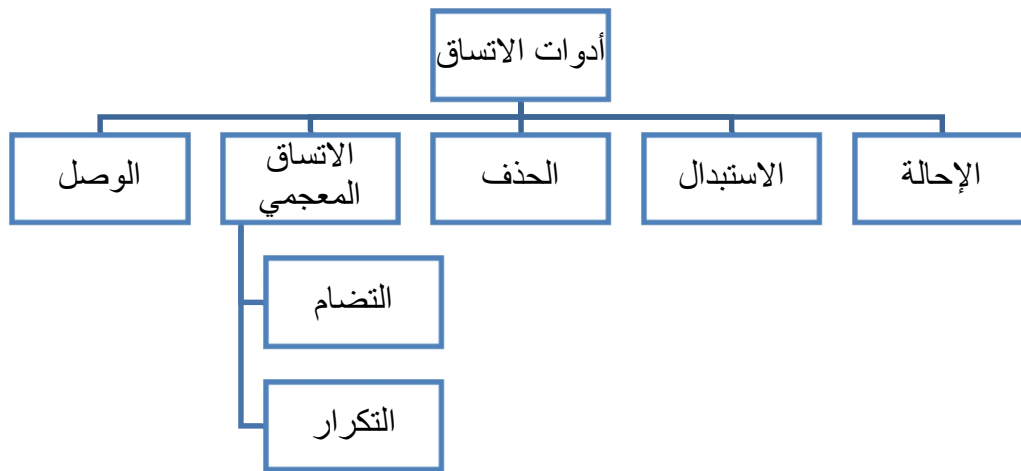
119- المرجع نفسه، ص277.

120 -ينظر: التحليل اللساني و علمية القيم الدينية،المصطفى تاج الدين ،مجلة الإحياء،الرابطة المحمدية للعلماء،ع:32-33،رمضان 1431هـ/أوت 2010م،ص:168_183.

121-لسان العرب: لابن منظور، مادة (وسق)، ج12، المصدر السابق، ص1762.

ونجد، من الناحية الاصطلاحية، أنه يُقصد عادة بالاتساق ذلك "التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص /خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمته"¹²².

ويُفهم مما سبق، بأن النص إذا اتسم بالاتساق خضعت جملة لعملية بناء منضمة ومترابطة تركيبيا ودلاليا، بحيث كل جملة تؤدي إلى الجملة اللاحقة ويتحقق هذا التعالق بواسطة أدوات ووسائل لغوية. وبالتالي فإن الاتساق هو الذي يضمن تماسك النص ويميزه عن اللانص، وتساهم مجموعة، كما سنرى فيما بعد، من الوسائل والأدوات النحوية والدلالية في هذا مما يجعل الاتساق يكون تركيبيا ودلاليا. وأهم هذه الوسائل والأدوات التي تساهم في جعل النص متسقا شكلا ما يوضحه هذا المخطط:



¹²² -لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، د. محمد خطايي، المرجع السابق، ص 05.

2 - مفهوم الانسجام:

سنقف على أهم معاني الانسجام، قبل الحديث عن وسائل انسجام النص، في اللغة، فقد جاء في لسان العرب "سَجَمَتِ العين الدمع والسحابة الماء تَسْجِمُهُ وَتَسْجُمُهُ سَجْماً وَسُجُوماً وَسَجْماناً: وهو قَطْران الدمع وسَيْلانُه، قليلاً كان أو كثيراً، وكذلك الساجِمُ من المطر، والعرب تقول دَمَعٌ ساجِمٌ.

ودمع مَسْجُوم: سَجَمَتْهُ العين سَجْماً، وقد أَسْجَمَهُ وَسَجَّمَهُ. والسَّجَمُ: الدمع. وَأَعْيُنُ سُجُومٍ: سَوَاجِمُ؛ قال القطامي يصف الإبل بكثرة ألبانها: ذَوَارِفُ عَيْنَيْهَا من الحَفْلِ بالضُّحَى، سُجُومٌ كَتَنَضاحِ الشَّيْثَانِ المِشْرَبِ وكذلك عين سَجُومٍ وسحاب سَجُوم. وَاَنْسَجَمَ الماءُ والدمع، فهو مُنْسَجِمٌ إِذَا اَنْسَجَمَ أَي انصب"123.

و جاء في مقاييس اللغة: "السين والجيم والميم أصلٌ واحدٌ، وهو صَبُّ الشَّيْءِ من الماء والدمع. يقال سَجَمَتِ العينُ دَمْعَهَا"124.

أمّا من الناحية الاصطلاحية، فإن "مفهوم الانسجام يعتبر لصيقاً (inhérent) بمفهوم النص ومكوناً له، بل إن الانسجام يعادل مفهوم النص ومفهوم النصية"125. ومن هنا، فإن الانسجام يتحقق "في التواصل اللغوي حين يستعمل المتكلم بعض الوحدات اللغوية... كوحدة قاعدية للنص (a text base unit) وبواسطة الموضوع (thème) والتوسيعات (the expands) يبدأ في عملية التدرج الخطي في ترتيب متفق للنص ويتم مقاطع الوحدات"126.

ويمكن أن نجمل مبادئ الانسجام في المخطط التالي:

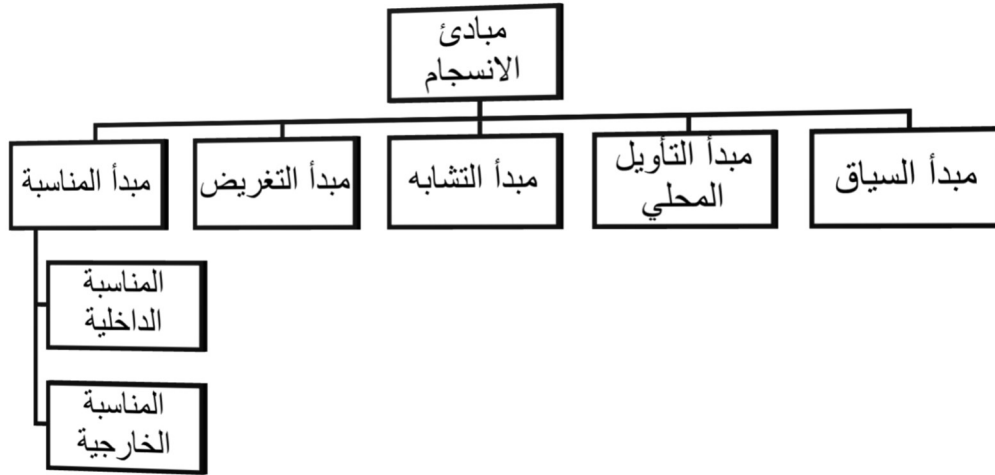
123- لسان العرب، ابن منظور، مادة (سجم)، ج1، المصدر السابق، ص1762-1763.

124 - مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (سجم).

125 - cohérence textuelle, P 17 LUNDQUIST : La

WERLICH : a text grammar of English, P 30.

-126



فمن خلال هذه الأدوات، التي سنطبقها في سورة البقرة، ندرك أسرار انسجام النص من عدمه، وفق ما بينه علماء النص.

الانسجام في سورة البقرة:

مبدأ السياق :

مما أشار إليه علماءنا القدامى قاعدة ذهبية مضمونها أن أفضل طريقة للتفسير هي تفسير القرآن بالقرآن¹²⁷، وتعد هذه الملاحظة، في رأيي، إشارة إلى منهج قويم في علم الدلالة (Sémantique) والذي أصبح يعرف اليوم بـ"المنهج السياقي".

لهذا صرح زعيم المدرسة السياقية فيرث (Firth) بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال "تسييق الوحدة اللغوية"¹²⁸، أي وضعها في سياقات مختلفة، وعليه فإن "دراسة دلالات الكلمات تتطلب تحليلاً للأنماط السياقية والطبقات المقامية التي ترد فيها، فمعنى الكلمة يتحدد وفق السياقات التي ترد فيها"¹²⁹.

¹²⁷ - ينظر: البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، دار الجيل بيروت، ج2، ص175

¹²⁸ - علم الدلالة: أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص.68

¹²⁹ - علم الدلالة: أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص.68

ومن هنا، فإن للسياق دوراً أساسياً في ترابط النص القرآني وانسجامه، انسجاماً يجعل أي القرآن مرتبطاً "بعضه ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني" ¹³⁰.

مبدأ التأويل المحلي: إذا كان يُقصد به التعامل مع النص من خلال معطيات النص، وفهمه انطلاقاً من سياقه الخاص، وتأويله تأويلاً داخلياً محلياً، فإننا لا نستطيع تأويل كلمة البقرة، مثلاً، بمنأى عن السياق القصصي الذي جاءت فيه.

فقد وجدنا الماوردي (ت 450هـ) ¹³¹ يبين سر اختيار البقرة للذبح في قوله: "وإنما أمر، والله أعلم، بذبح البقرة دون غيرها؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته" ¹³².

ومن هنا؛ فإنما اختص البقر من "سائر الحيوانات لأنهم كانوا يعظمون البقر ويعبدونها من دون الله فاختبروا بذلك؛ إذ هذا من الابتلاء وهو أن يؤمر الإنسان بقتل من يحبه ويعظمه" ¹³³.

مبدأ التغريض:

إذا كان الخطاب ينتظم على شكل متتاليات من الجمل متدرجة لها بداية ونهاية فإن هذا النظام، يعني الخطية والنسقية، يتحكم في تأويل الخطاب بناء على ما يبدأ به المتكلم أو الكاتب سيؤثر في تأويل ما يليه، ولذلك عرف براون و يول التيمة بأنها "نقطة بداية قول ما" ¹³⁴. وهكذا فإن عنوان النص سيؤثر

¹³⁰ -إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ضبطه محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط5، 1952 م، ص270.

¹³¹ -هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب القاضي البصري الشافعي، (ت 450هـ)، له الأحكام السلطانية، وأدب الدنيا والدين، الحاوي في الفقه، وقانون الوزارة، [طبقات السيوطي، ص83-84، طبقات الأدرودي، ص119-120].

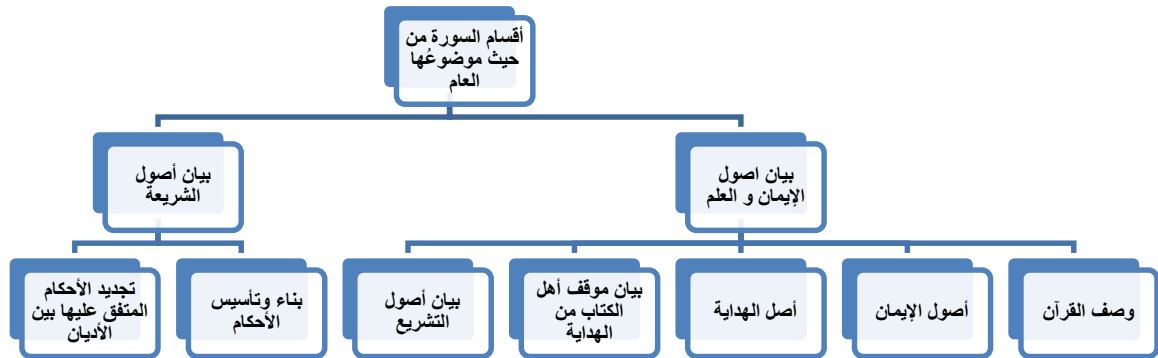
¹³² -النكت والعيون: الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، (137/1)، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، د ط.

¹³³ -البحر المحييط: أبو حيان محمد بن يوسف الجبائي، مطبعة السعادة، دار الفكر، بيروت، 1413هـ/1992م، (404/1).

¹³⁴ -brown,G. and George yule. (1983). Discourse Analysis. C.U.P. London, p 126

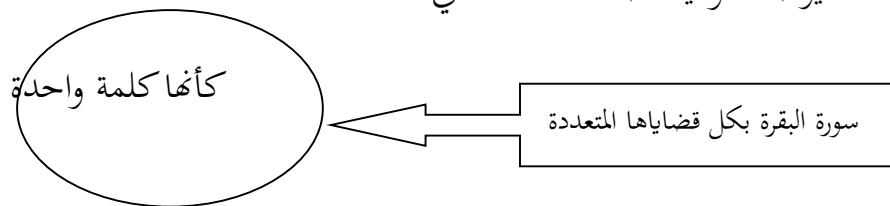
في تأويل النص الذي يليه، ومن هنا فإننا "نفترض أن كل جملة تشكل جزءاً من توجيه متدرج متراكم يخبرنا عن كيفية إنشاء تمثيل منسجم"¹³⁵.

فهذا هو الغرض العام الذي يجمع الأحكام في السورة يلخصه هذا المخطط:



ونخلص مما سبق، إلى أن السورة مهما تعددت قضاياها فهي "كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، و يتزامى بجملته على غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة"¹³⁶.

و هذا ما يوضحه و يلخصه المخطط التالي:



¹³⁵ -المرجع نفسه، ص135.

¹³⁶ -المرجع نفسه، ص137.

وإنه لا غنى، استنادا على ما سبق، لمن يريد أن يفهم سر "نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية"¹³⁷.

ونخلص مما سبق، إلى أن القرآن متناسق تناسقا عجيبا بين جميع سوره (114 سورة)، مما يجعله يشكل بناء واحدا محكما متراصا، لا يستطيع أي إنسان أن يسقط ولو حرفا واحدا منه.

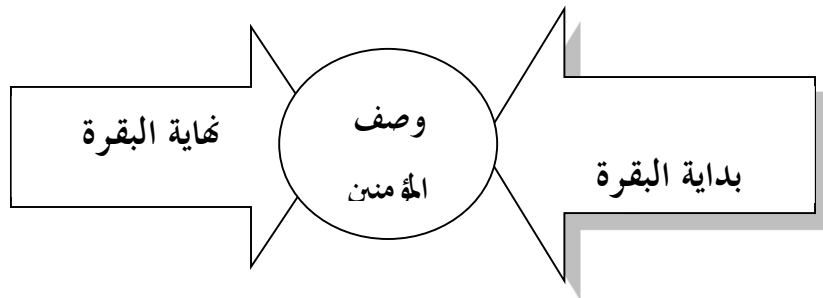
المناسبة ودورها في انسجام النص

1- أوجه التناسب الداخلية في سورة البقرة

مما لا يخفى على أي دارس متمحص، بأن " المناسبات بين سور القرآن الكريم أو بين الآيات في السورة الواحدة من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى فهم دقيق لمقاصد القرآن الكريم، وتندوّق لنظم القرآن الكريم وبيانه، وعلى معايشة جوّ التنزيل، وكثيرا ما تأتي إلى الذهن المفسر على شاكلة إشراقات غكرية أو روحية"¹³⁸.

وهو علم يجعل أجزاء الكلام بعضها "آخذا بأعناق بعض، فيقوي بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"¹³⁹.

وهذا التوافق نلخصه في هذا المخطط

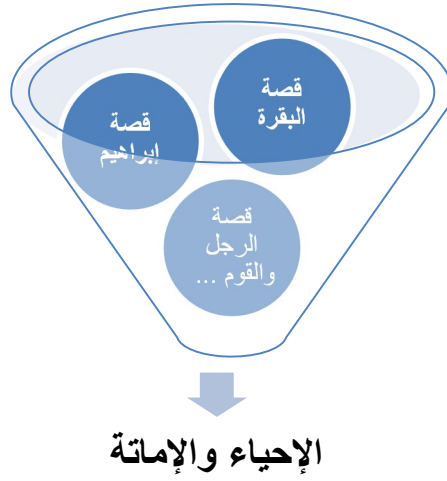


¹³⁷-المرجع نفسه، ص137.

¹³⁸-مباحث في التفسير الموضوعي، أ.د. مصطفى مسلم، المرجع السابق، ص61.

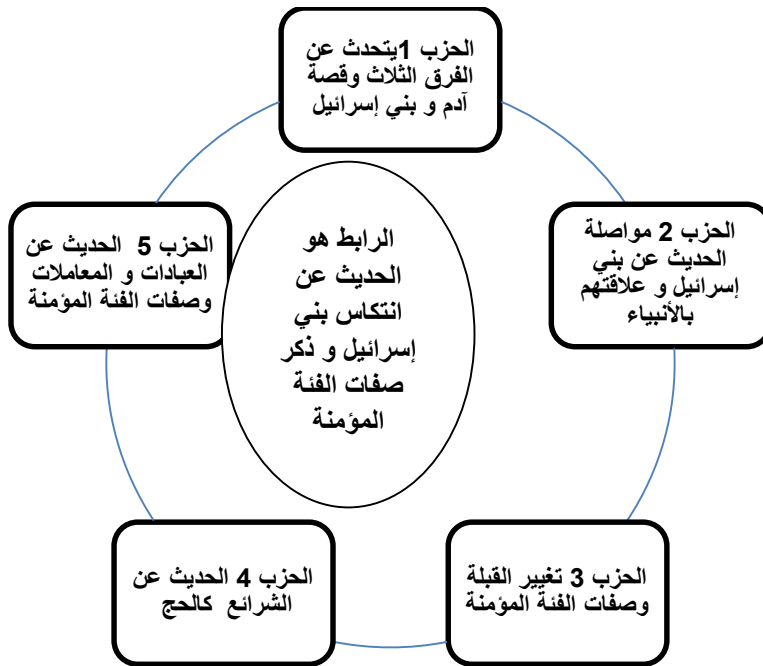
¹³⁹-البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد عبد الله الزركشي، ج1، المصدر السابق، ص35-36.

فكل القصص، على ما سبق، تصب في فكرة واحدة كما يوضحها هذا المخطط:



وسنحاول في هذا المخطط تبيان التوافق العظيم بين جميع مقاطع سورة البقرة استلهاها من تفسير

سيد قطب:



والجدول التالي بلخص، ما سبق ذكره، من أوجه التناسب بين الفاتحة والبقرة:

البقرة	الفاتحة
الآيات 152-186-286	الحمد لله
الآيات 21-22-29-وقصة آدم عليه السلام	رب العالمين
الآيات 54-126-52-163-286	الرحمن الرحيم
الآية 284	ملك يوم الدين
جميع فروع العبادة وردت في البقرة: "الطهارة، الحيض، الصوم، الحج..."	إياك نعبد
جميع علم الأخلاق، التوبة، الصبر، الرضا...	وإياك نستعين
الآيات 142-145-137.	اهدنا الصراط المستقيم
136-137-مع التفصيل في ذكر الأنبياء.	صراط الذين أنعمت عليهم
قصة بني إسرائيل	غير المغضوب عليهم
في ذكر النصارى	ولا الضالين

الاتساق في سورة البقرة

لقد تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، قال تعالى في بداية سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢٣)

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة: 23-24]

ودعاهم لأن يتأملوه "سورة سورة، وعشرا عشرا وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينوبها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بھر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتثاما، وإتقانا وإحكاما"¹⁴⁰.

فما سر هذا الاتساق والنظام ؟

يرتكز الاتساق، من خلال الملاحظة، المتأنية في سورة البقرة على عدة وسائل ومظاهر لغوية محددة تنسج البنى الخارجية بكل علاقاتها ووظائفها. نذكر من بين هذه الوسائل: الإحالة، الاستبدال، الحذف، الوصل والاتساق المعجمي.

الإحالة : فإن النصّ القرآني خطابٌ متعدّد الجوانب، ونصّ متماسك ومتجانس، ويتضمن أدوات إحالية تقوم بوظيفة الإحالة، منها أدوات الإحالة الداخلية ومنها آليات الإحالة الخارجية: فأسماء الإشارة وظروف الزمان والمكان والضمائر وأسماء الموصول وأزمنة الأفعال، وكل الأدلة التعيينية والوصفية والإشارية تعمل على ربط الخطاب القرآني بالواقع الزماني والمكاني الذي أحاط بنزوله باعتباره خطاباً¹⁴¹.

والقرآن الكريم باعتباره نصا فإنه يتضمن شروط نصيته، واكتماله ووحدته، ومعالم بنيته ونظامه، فيتم التركيز عليه في ذاته، ليتحقق تأويله انطلاقاً من داخله، وعبر قراءته.

¹⁴⁰ -دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، المصدر السابق، ص 79.

¹⁴¹ -ينظر: النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، المرجع السابق، ص 164.

فالضماير من بين الوسائل التي تحقق التماسك الداخلي والخارجي للنص ؛ وعندما نتأمل الآيات التالية من سورة البقرة:

1 ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَايِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

2- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَايِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246].

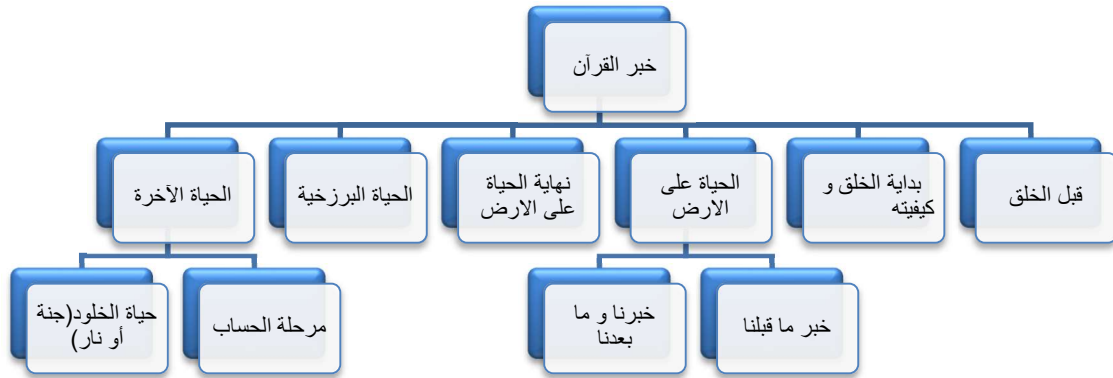
نلاحظ بأن هذه الإحالة الداخلية تحققت في الضميرين (أنا وأنت) في الإطار المحدود الذي يتعلق بتقاطع مقاطع سردية مع مقاطع حوارية وتكون وظيفة هذه المقاطع السردية التداخل أو التمهيد. والأمثلة على ذلك كثيرة ؛ لكن البحث همه في هذا المقام الإشارة لكي لا يطول بنا المقام.

الخلاصة:

الحقيقة إن نصوص القرآن الكريم تعالج من جهة كون القرآن كله وحدة بنائية بكل سورة و آياته و أجزائه و أحزابه و كلماته، كالجمل الواحد أو البناء المحكم الذي يمتنع اختراقه لمئاته و قوته¹⁴²، و لا يقبل بناؤه و إحكام آياته التعدد فيه او التجزئة في آياته، ولولا هذه الوحدة البنائية لما استوعب القرآن "خبر ما بعدنا" حيث استوعب مستقبل البشرية .

و هذا المخطط يوضح ما أخبر عنه القرآن الكريم:

¹⁴² ينظر: طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقرآن المجيد، سلسلة دراسات قرآنية (3)، مكتبة الشروق الدولية ، ط1، 1427/2006م.



و نلاحظ من خلال هذا المخطط بأن القرآن قد شمل جميع الحوات فهذا دليل واضح جلي على شموليته ووحدة بنائه حتى من حيث المعنى ،فهو لا يتحدث عن حياة دون أخرى "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"¹⁴³.

ولكن المفسرين بالرغم من اقتناعهم بأن القرآن يفسر بعضه بعضا لم يؤد انشغالهم بالتفسير إلى الكشف عن الوحدة البنائية للقرآن الكريم ،و قد ذمَّ الله عز وجل المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين أي مفترقا،و آمنوا ببعض الكتاب و كفروا ببعض ، وقد كان الدم كافيا للدفع إلى اكتشاف منهج للقراءة الواحدة غير المجزئة لاكتشاف الوحدة البنائية.

يلاحظ مما سبق، على أن النص القرآني زاخر بالنماذج الكثيرة، التي ذكرها المفسرون في كتبهم، التي تبرز أسبقيتهم في تبيان أدوات الاتساق والانسجام في النص القرآني بصفة عامة وفي سورة البقرة بصفة خاصة. وما اخترناه من أمثلة يعتبر قليل مما هو مبثوث في كتب التفسير.

¹⁴³ سورة القصص: الآية 77.

الحجاج في قصة نبي الله نوح عليه السلام

تمهيد

مما لا يخفى واقعيا و علميا على أن القرآن كلام الله المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم يأمره فيه و به بأن يدعو الناس ، وهو «حجاجي في مجمله»¹⁴⁴ ، بالحجة البالغة المبينة لصدق نبوته ، كما دعا الأنبياء قبله إلى ذلك رغم معاندة قومهم ، وفي قصة نوح عليه السلام يظهر ذلك جليا إذ إنه أطول عمرا دعوة إلى الله .

ذكر أصحاب السير على أن نوح عليه السلام كان تقيا صادقا، أرسله الله ليهدي قومه و ينذرهم عذاب الآخرة ولكنهم عصوه وكذبوه ، و مع ذلك استمر يدعوهم إلى الدين الخفيف فاتبعه قليل من الناس ، واستمر الكفرة في طغيانهم فمنع الله عنهم المطر، و دعاهم نوح أن يؤمنوا حتى يرفع الله عنهم العذاب فأمنوا فرفع الله عنهم العذاب ، و لكنهم رجعوا إلى كفرهم، و أخذ يدعوهم تسع مائة و خمسين (950) سنة ثم أمره الله ببناء السفينة ، و أن يأخذ معه زوجا من كل نوع ثم جاء الطوفان فأغرقهم أجمعين.

فماهي الحجج التي اعتمد عليها نوح عليه السلام في دعوته لإنقاذ قومه من الشرك ثم من عذاب الله تعالى؟ وما هي الحجج التي اعتمد عليها قومه في انكار دعوته و الثبات على اعتقادهم ؟ وماهي آليات التثبيت و التنفيذ لكلا الفريقين ؟

مجمل قصة نوح عليه السلام :

تظهر حال الناس ، بالنسبة لدارس القرآن ، حالا عادية إذ كان الناس موحدين ، قبل ميلاد نوح عليه السلام، هنا تميز خمسة رجال بالصلاح من أجداد قوم نوح ، عاشوا زمنا على تلك الحال حتى توفتهم المنية ، كانت أسماء الرجال الخمسة هي : " وُدّ، سواع، يغوث، يعوق، نسرا"¹⁴⁵. بعد موتهم صنع الناس لهم تماثيل في مجال الذكرى والتكريم، ومضى الوقت ومات الذين نحتوا التماثيل وممرت الأجيال و تعاقبت الذرية ثم نسجت قصص، و حكايات حول التماثيل تعزو لهذه التماثيل قوة خاصة ، و أوهمهم إبليس أنها آلهة تنفع و تضر فعبدت من دون الله تعالى.

144 - الحجاج في القرآن، عبد الله صولة، ط 2، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، 2007، ص54.

145 - ينظر : ابن كثير، قصص الأنبياء، ص:71.

وقصة نوح عليه السلام ذكرت، بين التفصيل و الاختصار، في القرآن الكريم في عشر (10) سور
وفق الترتيب المصحفي الموضح أسفله:

اسم السورة	مكان النزول	الآيات التي ذكرت فيها قصة نوح عليه السلام
الأعراف	مكية	64-59
يونس	مكية	73-71
هود	مكية	49-47
الأنبياء	مكية	77-76
المؤمنون	مكية	31-23
الفرقان	مكية	37
الشعراء	مكية	122-105
الصفات	مكية	82-79
القمر	مكية	15-9
نوح	مكية	السورة كاملة

هذه هي جملة السور، سنذكر فيما بعد تفصيل ذكر قصة نوح في القرآن الكريم ، التي ذكرت فيها قصة نوح عليه السلام حيث إنها أجملت في تسع سور، بما يقتضيه سياق السورة و موضوعها، إلا إنها فصلت في سورة نوح حيث بينت الحوار بجميع تفاصيله بين نبي الله نوح عليه السلام و الملائكة من قومه الذين أنكروا عليه دعوته، معتمدين على حجج، تستمد حُجَّياتها مما يفعله الآباء، محاولين أن يثنوه عن دعوته، و هو ثابت متمسك بدعوته طوال مراحل الحياة الدعوية الطويلة التي عاشها نوح عليه السلام، و هي أطول مرحلة دعوية ، كما بيَّنا، عرفها نبي على الإطلاق .

وأما سورة نوح فقد اشتملت على قصته كاملة وما أجمل في السور المتقدمة فقد ذكرته هذه السورة بتفصيل أكبر، وكيف لا يكون ذكره بهذه الصورة وهو من أولي العزم من الأنبياء بل هو أبو الأنبياء، حتى إننا لنرى أن قصته تسبق قصص جميع الأنبياء في القرآن وفي جميع السور، لما أن لنوح عليه السلام من الشهرة لكونه كآدم ثان للبشر ونجاه ممن نجا من أهل الطوفان ببركته¹⁴⁶.

و قد أرسل إلى قومه فدعاهم بدعوة التوحيد التي هي دعوة جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله لأقوامهم منذرين ومبشرين قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم

عرض القرآن الكريم لقصة نوح عليه السلام بما يقتضيه السياق العام للسورة ، أو السياق الموضوعي على طريقتين اثنتين :

الطريقة الأولى: وفيها نوع من الإسهاب و التطويل تارة و الاختصار تارة أخرى ، و في هذه الآيات التي توضح القصة بجلاء واضح في السور التسع (09) بحسب ما يقتضيه السياق العام للسورة وموضوعها، إذ إن الحوار الدائر بين نبي الله نوح عليه السلام وقومه تبينه هذه الآيات :

1. سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٩ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٠ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٢ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ١٤﴾ [الأعراف: 59-64].

2. سورة يونس: ﴿وَإِذْ قَالَ نُوحٌ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٢ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ١٤﴾ [يونس: 101-108].

إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ ٧١ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ٧٣ ﴿ [يونس: 71-73].

3. سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢٥ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ٢٦ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ٢٧ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ٢٨ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ٢٩ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ٣١ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٤ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ٣٥ وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٣٦ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ٣٧ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ٣٩ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ٤٠ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ٤١ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ٤٢ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ

بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ٤٣ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٤٤ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٤٧ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٨ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ٤٩ ﴿[هود: 49-25].

4. سورة الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ٧٧﴾ [الأنبياء: 76-77].

5. سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَعَنَّا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ٢٤ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ٢٥ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ٢٧ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢٨ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٢٩ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ٣٠ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاتِ الْآخِرَةِ وَاتَّرفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ

إِنَّكُمْ إِذَا لَحَا سُرُونُ ٣٤ أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مَخْرُجُونَ ٣٥ هَٰئِهِتَ هَٰئِهِتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٣٧ ﴿[المؤمنون: 23-37].

6. سورة الفرقان: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٧﴾ [الفرقان: 37].

7. سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١١٠ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ١١٣ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ١١٤ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ١١٥ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١١٨ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ١٢٠ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٢٢﴾ [الشعراء: 105-122].

8. سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ٧٨ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ٨٢﴾ [الصافات: 79-82].

9. سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبُّهُ أَلَيَّْ مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ١٥﴾ [القمر: 9-15].

ومما سبق يتضح لنا بجلاء أنه دعاهم إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك وهي قضية جوهرية في الحوار بينه وبين قومه، لأنه ما علم لهم من إله غيره إذ إنه يخاف عليهم عذاب عظيم، وأما رد القوم فإنهم كانوا يرونه في ضلال مما هم فيه.

يجيبهم نوح عليه السلام قائلا: ليس بي ضلالة و لكني رسول رب العالمين أبلغكم رسالات ربي و أنصح و أعلم من الله ما لا تعلمون، أعجبتم أن جاءكم نذير من رجل منكم فكذبوه و أنجاه الله و من معه في الفلك ، و أغرق الذين كذبوه بسبب عميئناهم عن رؤية الحقيقة مبصرة.

و في سورة يونس تبين لنا الآيات تحدي نوح لقومه بأن يجمعوا أمرهم ،ويفعلوا ما بقدرتهم لأنه توكل على ربه فإن لم تفعلوا فقد اندرتكم، وما سألتكم من أجر لأن أجري على الله رب العالمين فأغرقهم الله تعالى ، و جعل الذين اتبعوه خلائف من بعدهم .

وفي سورة هود دخل الحوار إلى الأمور أكثر تفصيلا، إذ أخبرهم بأنه رسول ربهم، و أنذرهم عذابا أليما، كان جواب قومه بأنه بشر مثلهم، و أنه اتبعه الأراذل القوم بادي الأمر و ما نرى عليكم من فضل و تميز؛ بل نظنكم كاذبين هذا كلام الملائكة الكافرين من قومه.

فرد نوح عليه السلام قائلا: إن كانت هذه النبوة رحمة أعطاني الله إياها وعميت عليكم أنزل مكموها وأنتم لها كارهون، أنا لا أسألكم مالا و إنما أجري على الله ،و لأن أطرده الضعفاء المؤمنين و إن أجرهم إلا على الله تعالى، ومن ينصر من الله إن طرهم ولكنكم قوما تجهلون.

و لا أقول عندي خزائن الله التي تحوي كل الخيرات، ولا أقول إني أعلم الغيب، و لا أقول إني ملك، و لا أقول للذي تحتقرون لأن يؤتيهم الله خيرا الله عليم بما في أنفسهم، قال قومه: يا نوح قد أكثر جدالنا فأتينا بما تعدنا، وهنا نلاحظ أن قومه تحدوه تحديا صارخا و النبي صابر ممتثل أمر الله تعالى.

ونراه يجيبهم بقوله: إنما يأتيكم به الله إن شاء و ما أنتم بمعجزين .أردت أن أنصحكم ولكن عنادكم جرى عليكم غضب ربكم فأرداكم فأصبحتم من الخاسرين ،إذا قلت: إني افتريته فإن كنت افتريته فعلي افتراضي و كذبي.

جاء الخطاب من الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك و هنا زاد عنادهم وزادت سخريتهم له ، و استهزاء منه رغم أنه مغرقون مهلكون بكفرهم. قال :سخريتكم سترجع عليكم و سنسخر منكم كما تسخرون.

ولما جاء الموعد حمل فيها من كل زوجين و من آمن معه وما آمن معه إلا قليل، و هذه السفينة تجري وترسو بأمر الله تعالى، و نادى نوح ابنه ولكن الابن كان من الإمعة التي تبعت الملاء المعاند و الجاحد. و قال: إني الذي يعصمني من الماء الجبل لعلوه .فقال الأب المشفق عليه: لا عاصم من أمر الله إلا من رحم ففرق بينها الموج فكان من المغرقين المهلكين.

وحاول نوح أن يدعو ربه من أجل ابنه، ولكن جاء الخطاب بأنه عمل غير صالح و لا تسألني ما ليس لك به علم فاستغفر ربه. وجاءه الأمر أن اهبط بسلام عليك و على أمم ممن معك، و أمم ستمتعهم ثم يمسه من عذاب أليم.

و في سورة المؤمنون نرى فيها بوضوح دحضا للحجج المعاندين و تبيان عاقبتهم و في هذا الاختصار يلائم موضوع السورة و طبيعتها ،و أما في سورة القرقان لخصت القصة في آية واحدة متمثلة في الإغراق وهذه هي نهاية الظالمين .

و في سورة الشعراء ردٌ على حجج المعاندين واستهزائهم بالضعفاء المؤمنين، و تبيان نهاية الظالمين المعاندين.و في سورة الصافات بيان بأن الله يجيب دعوة عباده المخلصين الصابرين الثابتين ،و يغرق الظالمين المعاندين، و يبقي الصالحين ويجعل ذرية النبي هم الباقيين .أما في سورة القمر فبينت ،كذلك ،استجابة الله لدعاء نبيه و إهلاك الظالمين ليكونوا عبرة لغيرهم .

و نلاحظ أن هذه السور الخمس لخصت القصة تلخيصا إذ جعلتها في آية واحدة كحد أدنى ،و رغم أنها قصة نبي أطول عمرا دعويا ولكنها تقتضب في جملة من الكلمات لتبين أن نهاية المعاندين، و خاتمهم المظلمة لا تستدعي حديثا مطولا فهم أهون على الله .

الطريقة الثانية :وفيها تظهر الإشارة الخاطفة للقصة أو للنبي نوح عليه السلام بما يخدم موضوع السورة وفيما يلي عرض للسور التي ذكرت ذلك:

أ. { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } [النساء : 163].

ب. { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُنَّ رُسُلُهُنَّ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُنَّ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُنَّ يَظْلِمُونَ } [التوبة : 70] .

ت. ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمِ نُوحٍ أَوْ قَوْمِ هُودٍ أَوْ قَوْمِ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝٨٩﴾ [هود : 89].

ث. { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْدِيَّهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [إبراهيم : 9].

ج. { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا } [الإسراء : 3].

ح. { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } [الإسراء : 17].

خ. { أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } [مريم : 58].

د. { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ } [الحج : 42].

ذ. { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ } [ص : 12].

ر. { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [غافر : 5].

ز. { مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ } [غافر : 31].

س. { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ } [ق : 12].

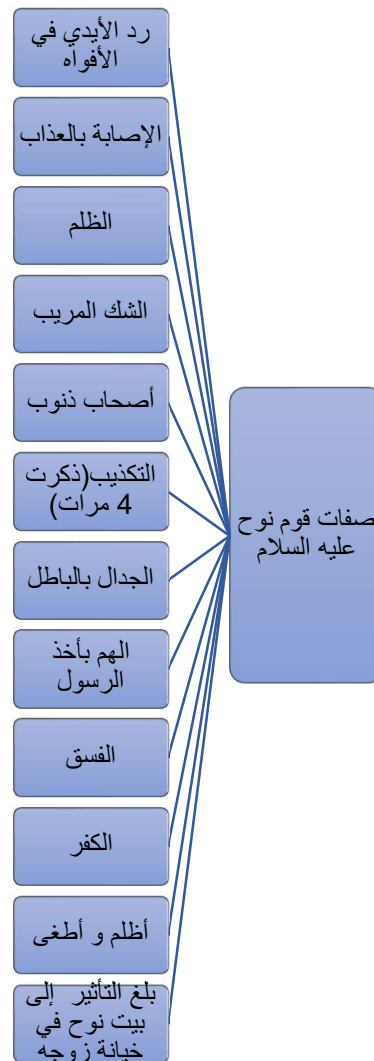
ش. {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الذاريات : 46].
{وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى} [النجم : 52].

ص. {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاحِلِينَ} [التحریم : 10].

نلاحظ أن القرآن قد تحدث عن نوح عليه السلام و قومه في كثير من السور زيادة على التي ذكرناها فوجدناه في اثني عشرة (12) سورة ،السابقة، يتحدث عن نوح و قومه في إشارات خاطفة مرة يتحدث عن نوح ووظيفته الرسالية ،و تأديته لها ، ووصفه بأنبأ الصفات منها الشكر ،وموقف قومه من تلك الرسالة بالتكذيب و الشك و الظلم و الريب ومحاولة الاعتداء عليه و على الذين اتبعوه مثلما فعلوا مع بقية المرسلين فأخذهم الله بذنوبهم فأهلكهم ،و أنجى عباده المرسلين، و الذين آمنوا معهم وذكر الذين يسيرون خلف الملاء دون أن يكون لهم رأي في ذلك مثل زوجة نوح التي لم تسلك مسلك زوجها فأهلكها الله مثلما أهلك الكافرين.

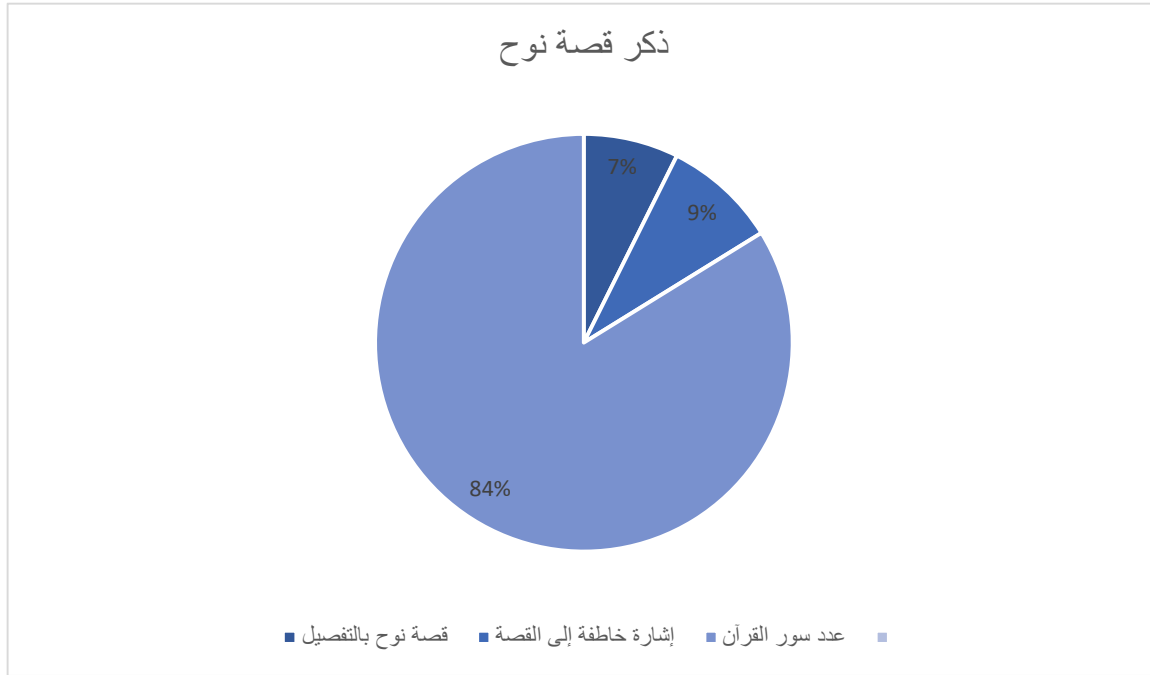
يمكن لنا في نهاية المطاف أن نجمل أهم صفات قوم نوح عليه السلام كما بينت في هذه السور

السابقة :



من خلال هذا المخطط يتضح لنا على أن هؤلاء القوم اتصفوا بصفات جعلتهم ينالوا عذاب الله الأليم الذي جاء نوح عليه السلام ليحذرهم منه ، ولكنهم لعنادهم و جدالهم بالباطل و تكذيبهم بما جاء به من حق، وتغطية الحق بالباطل و تكبرهم عن سماع كلام الله تعالى على لسان نبيه الذي أرسله إليهم ليخرجهم من الظلمات إلى نور الحقيقة، نالوا ما استحقوا من عذاب المتمثل في الإغراق و الهلاك.

ولو حاولنا أن نجمل طريقة عرض القرآن الكريم لقصة نوح عليه السلام، و تبيان النسبة المئوية لذكر القصة في القرآن الكريم فلن نجد أبين من هذا المخطط الذي يوضح لنا كيف عرض القرآن لقصة نوح قومه :



هذه الكيفية التي تحدث القرآن الكريم فيها عن قصة نوح وقومه فما هي اللغة التي تكلم بها نوح مع قومه؟ وهل نستطيع أن نستشفها من خلال القرآن الكريم؟

لغة قوم نوح عليه السلام:

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " يا أيها الناس إن الرب واحد ، و الأب واحد ، و ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، و إنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي"¹⁴⁷ .

اختلفت الدراسات في تبيان اللغة التي تكلمها بها قوم نوح عليه السلام ، وقد حاولت أن ابحث في هذه الموضوع انطلاقاً من القرآن الكريم حيث وجدت حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم يذكر فيه الأنبياء العرب ففي صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء

¹⁴⁷ -رواه ابن عساکر عن العلاء بن سالم (3 / 203 / 2) .

والمرسلين قال فيه : "وأربعة من العرب : هود ، وشعيب ، وصالح ، ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم" 148 .

و هذا الحديث دفعني للتعمق في البحث في الموضوع أكثر ، إذ إن اللغة العربية ، استنادا على هذا الحديث ، عميقة في التاريخ لا يتكلم نبي إلا بلغة قومه قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4] .

هذه الآية توحى لنا إichاء واضحاً أن النبي المرسل إلى قومه لا يتكلم إلا بلسانهم حتى يتسنى له أن يبين لهم دعوته ، ولا يكون لهم حجة بعد ذلك أمام الله تعالى .

تأسيساً على ما سبق ؛ فإن قوم عاد تكلموا اللغة العربية فأرسل الله إليهم هوداً نبياً عربياً يتكلم لغتهم ، وقد سكن قوم نبي الله هود عليه السلام في قبيلة تسمى عاد بن عوض¹⁴⁹ وهي قبيلة عربية سكنت الأحقاف و هي جبال الرمل ، و كانت باليمن من عُمان و حضرموت بأرض مطلة على البحر وهي من العرب العاربة¹⁵⁰ .

و يعود نسب النبي هود إلى سام بن نوح عليه السلام¹⁵¹ ، وهذا يدفعنا إلى القول بأن لغة نوح عليه هي اللغة العربية التي انتقلت إلى ابنه سام ومن ثم إلى قوم عاد حيث قال تعالى على لسان هود لقومه بأنهم ورثة قوم نوح :

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 69]

و الخلفاء "خلف فلان فلانا إذا كان خليفته يقال خلفه في قومه من باب كتب ... و خلفه أيضا إذا جاء بعده"¹⁵² . وهذا يظهر لنا أن قوم عاد خَلَفُوا قوم نوح في جميع الأمور بما ذلك اللسان الذي

148 - ابن كثير ، قصص الأنبياء تحقيق صدقي جميل العطار ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2014م ، ص 94 .

149 - ينظر : ابن كثير ، قصص الأنبياء ، تحقيق صدقي جميل العطار ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2014م ، ص 92 . و ما بعدها .

150 - المرجع نفسه ، ص 93 .

151 - ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص 93 .

152 - محمد بن أبي بكر الرازي ، مختار الصحاح ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ط 04 ، 1990م ، ص 126 .

هو وعاء الأمم، ولا يخفى على أن أبناء نوح من بعد الطوفان تفرقوا في الأمصار وهذه الخريطة ¹⁵³ توضح لنا تشتت نسل (سام وحام ويافث):

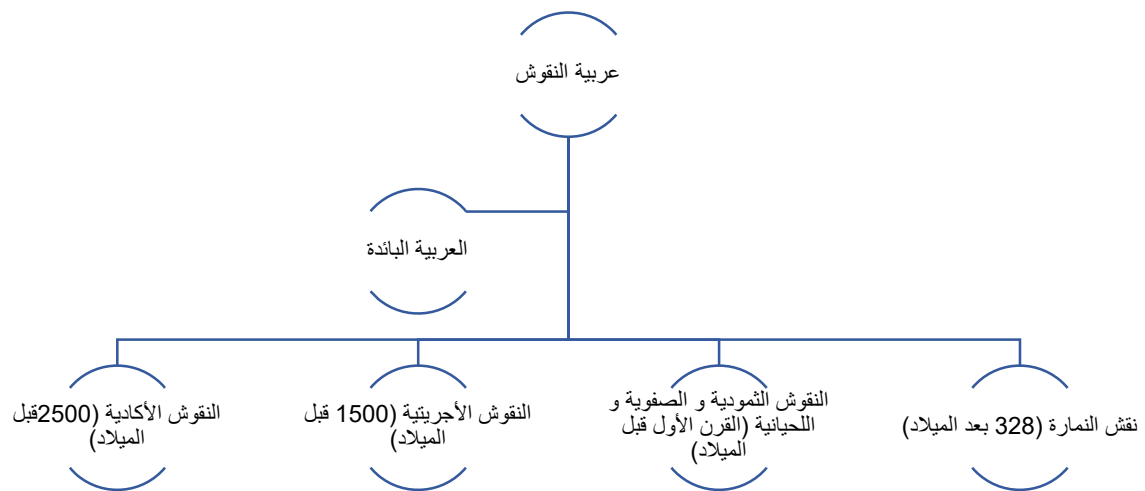


تبرز لنا هذه الخريطة موطن أبناء سام بن نوح عليه السلام الذي هو في الجزء الجنوبي ، وهو موطن اللغة السامية ، إذ يكاد " يجمع العلماء على أن الموطن الأول للساميين كان القسم الجنوبي الغربي من

¹⁵³ كتاب التاريخية وأطلس الجغرافيا التوراتية - خريطة 1854م.

شبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز و نجد و اليمن و ما إلى ذلك)¹⁵⁴ و من هذا المهد تفرعت الهجرات السامية إلى العراق و الشام و ما جاورهما. و يأتي العلماء بالأدلة المقنعة بصدق الرأي¹⁵⁵.

و نحن نعلم بأن "أول العرب كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس ، تعلم من أهل الحيرة ، و تعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار"¹⁵⁶ وهذا يدلنا على التوارث الموجود بين الأجيال حتى في الخط، و ما النقوش التي عثر عليها الباحثون إلا خير برهان على ما نقول :



و عربية النقوش هي العربية البائدة التي يعود تاريخها إلى قوم عاد و ثمود الذين تحدثوا العربية .

و ما يجدر الإشارة إليه في هذا الباب أن اللغة السامية التي تحدث بها أبناء سام بن نوح عليه السلام تميزت بجملة من الخصائص وأن "جميع ما تتميز به اللغة السامية الأم موجود في اللغة العربية و أن كل لغة سامية أخرى تحوي عنصراً أو عنصرين أو عناصر من الخصائص العامة للغة السامية الأم. أليس من الممكن تأدية هذا المعنى بألفاظ أخرى فنقول : إن العربية بها من الخصائص اللغوية ما ليس موجوداً في باقي الساميات ،بينما أي خصيصة في لغة سامية أخرى موجودة في اللغة العربية ،أي أن

¹⁵⁴ -علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، مكتبة النهضة المصرية، سنة 1944 نص: 07.

¹⁵⁵ -ظاهر الإعراب في النحو العربي وتطبيقاته على القرآن الكريم، ص: 05.

¹⁵⁶ -عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1987، ج2، ص: 342.

اللغة العربية جامعة لكل خصائص الساميات .فما المانع أن تكون هي الأم التي انبثق عنها باقي الساميات"157.

و من هنا يتضح أن اللغة العربية هي اللغة السامية ،و أن اللغة السامية موروثة عن قوم نوح و مما يدل على ذلك أن أسماء الآلهة التي عبدها قوم نوح عليه السلام هي أسماء عربية .

وأن سبب عبادتهم لها كما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23] قال هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا و سموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبدت "158.

و من هنا أضحي الأمر واضحا على أن لغة قوم نوح هي اللغة العربية بما تتميز به من خصائص تجعلها لغة أمّا فإذا" اتبعنا منهج المقارنة اللغوية اتضح لنا أن اللغات الأم كانت تتميز بالإعراب ،فالسنسكريتية، واليونانية و اللاتينية كانت لغات معربة ، و من هذه اللغات الأمهات انبثقت لغات أخرى غير معربة"159.

وزيادة على ما سبق، تأكيداً وتوضيحاً، فإن خاصية " ظاهرة الإعراب تفوق الهجرة الأكادية قدما ،وأن الأكاديين خرجوا بهذه الظاهرة من مهد الساميين، فالإعراب في العربية و الأكادية أقدم من سنة 2550 ق.م"160.

ختاما لهذا المبحث نرى كيف جمع القرآن الكريم بين الأنبياء الذين تكلموا اللغة العربية و بين نوح عليه السلام وهي إشارة توحى ،والله أعلى و أعلم ، على أن لغة نوح وقومه اللغة العربية ،في بدايات

157 -أحمد سليمان الياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها فيالقرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م، ص:05.

158 - ابن كثير، قصص الأنبياء، ص:71.

159 -المرجع نفسه، ص05.

160 -محمود حجازي، اللغة العربية عبر القرون، دار الكتاب العربي، سنة 1968م، ص25.

نموها و تطورها حتي اكتملت في الزمن مبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم ،قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام و يذكر قومه :﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ٨٩﴾ [هود: 89].

أطراف الحوار في قصة نوح عليه السلام:

كما هو معلوم فإن الحوار، هو نقاش عن وعي في قضية تهم شخصين وأكثر، في هذه القصة كان بين نوح عليه السلام قومه، إلا إن قومه أنقسموا إلى أقسام:

أ. المؤمنون و هم قلة: {وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} [هود: 40].

ب. الجاحدون كان يقودهم كبار القوم أو الملاء كما يصطلح عليهم القرآن الكريم، وغالبية الحوار كان معهم.

ت. الإمعة: وهم المتبعون للملاء المعاند دونما أن يكون لهم رأي في ذلك، وهذه حال غالبية الناس في جميع العصور.

فما هي القضية الجوهرية التي دار عليها الحوار بين نوح وقومه طيلة مدة الدعوة ؟

الدعوى : لا يسمى الخطاب خطابا حجاجيا إلا إذا «كل منطوق به يتوقف وصفه بالخطاب على أن يقترن بقصد مزدوج يتمثل في تحصيل الناطق لقصد الادعاء و تحصيل المنطوق له لقصد الاعتراض ، بالإضافة الى تحصيل الأول لقصد التوجه الى الثاني ، و قصد إفهامه معنى ما»¹⁶¹.

و في هذا الإطار ،تأكيدا على ما سبق ،نجد في الحوار بين سقراط و جورجوس يوضح أساسيات الخطاب و الخطيب إذ إنه "كي تجعل من الشخص خطيبا جيدا لامناص من معرفة العدل والظلم، سواء أتحصلت المعرفة عنده من قبل أم حصل عليها منك فيما بعد".¹⁶²

¹⁶¹ المرجع نفسه ، ص226

¹⁶² - هل من الضروري مواصلة نهجنا في تحليل الخطابات؟ آن ريبول و جاك موشليز، ص223.

يبين لنا القرآن الكريم في السور السابقة على أن القضية التي دعا إليها نوح عليه السلام توحيد الله في العبادة ونبد الشرك الذي عاش به قومه قال تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64) }¹⁶³.

و كل الآيات في جميع السور التي ذكرت فيه قصة نوح عليه السلام تبين على أن دعوى نوح عليه السلام هي التوحيد و نبذ الشرك { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) }¹⁶⁴.

دعوى قومه:

الشرك و نبذ التوحيد : إن قوم نوح انقسموا إلى أقسام ، كما بيَّنا ، فقسم آمن بما جاء به نوح وهم الفقراء و المساكين ، و قسم كفر و عاند وهم الأغنياء و الكبراء و الوجهاء سمو في القرآن بالملأ { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (60) }¹⁶⁵، وقسم هم التبع لهم.

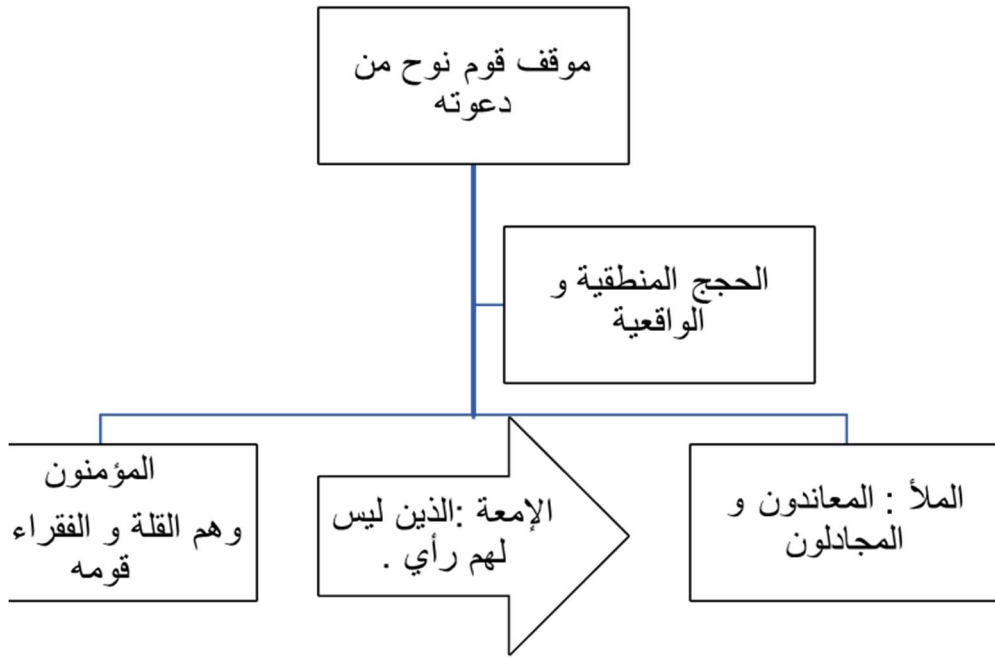
ومن هذا المنطلق كانت قصة نوح عليه السلام مجالا للعرض والاعتراض، وتقديم الأدلة على وحدانية الله وإثبات ذلك في كل مراحل الحوار وعبر كل الأحداث والأزمان والأماكن، فكانت السمة البارزة في هذه القصة هي التنفيذ والإثبات.

يبين لنا هذا المخطط البياني تلك الدعوى و الدعوى المضادة بين نوح عليه السلام وقومه:

¹⁶³ -سورة الأعراف، الآيات من 59 إلى 64.

¹⁶⁴ -سورة الأعراف، الآية 59.

¹⁶⁵ -سورة الأعراف، الآية 60.



3. آليات التنفيذ والإثبات:

يرتكز الحجاج في الخطاب القرآن الكريم على جملة من الآليات من أجل تنفيذ وإثبات قيام دعوى ورفضها فماهي تلك الآليات؟

1-آليات التنفيذ:

يقوم الحجاج في القرآن الكريم على ثلاثة طرائق هي أن يكون بالحكمة أو بالموعظة أو بالجدال فعلى أي نوع أقام نوح عليه السلام دعوته لقومه؟

إن المتمعن في الآيات التي ذكرت لنا قصة نوح عليه السلام يلاحظ على أنه اعتمد على الطرائق الثلاث بحسب الحال التي يكون عليها المخاطب، فقد بينت لنا سورة نوح، مثلاً، تلك الطرائق الثلاث وموقف القوم من ذلك ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ^٢ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا^٣ يَعْزِمُ لَكُمْ مِنْ دُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا^٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ

وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ١٢ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ١٦ وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ١٩ لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٠ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ٢٤ ﴿ [نوح: 2-24] .

إذا كان نوح عليه السلام اعتمد على الطرائق الثلاث في دعوة قومه كما بينت لنا سورة نوح، فإن هدفه الأسمى هو اقناع قومه بدعوته بغرض نجاتهم من عذاب الله تعالى، لأننا إذا تحدثنا عن الحجاج نقصد بذلك عموماً محاولة الإقناع بشتى وسائل.

و على هذا اتفق منظرو الحجاج فعندما نتحدث " عن الحجاج عند أرسطو باعتباره فن الإقناع أو مجموعة التقنيات التي تحمل المتلقي على الاقتناع أو الإذعان" ¹⁶⁶ ومن هنا كان من الضروري لممة جميع التقنيات "و هو حديث يستدعي ضرورة مصطلحا آخر هو الجدل الذي عرفه أرسطو بكونه علم الاستدلال المنطقي" ¹⁶⁷.

و الجدل بالتالي أحسن كما بينه القرآن الكريم هو طريقة من طرائق الحجاج التي تتطلب نوعاً من الحجاج المنطقي " و الجدل عند أفلاطون منتهى العلم و كمال المعرفة و هو الوسيلة لبلوغ الحقيقة" ¹⁶⁸، التي يراها المرسل أنها تصلح حال المخاطبين.

و المعاند يستند دائماً في حجاجه على دحض حجج الطرف الآخر لأن السمة المميزة للحجاج أن "كل حجة تفترض حجة مضادة و لا وجود البتة لحجاج دون حجاج مضاد باعتبار أن الحقيقة

¹⁶⁶ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته واساليبه، عالم الكتب الحديث، وأريد، الأردن، ط2، 2001، ص17-18.

¹⁶⁷ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته واساليبه، ص17-18.

¹⁶⁸ - بلاغة الإقناع في المناظرة ص44.

متى تنزلت في إطار العلاقات الانسانية و الاجتماعية صعب ادراكها و أضحت محل نزاع و جدال في غياب الحجج المادية و الموضوعية»¹⁶⁹.

رغم أن البلاغة الجديدة حاولت أن تفرق بين الحجاج و بين غيره ،ولذلك فان مفهومه عند برلمان و تيتيكا "يستند إلى صناعة الجدل من ناحية و صناعة الخطابة من ناحية أخرى بكيفية تجعل الحجاج شيئاً ثالثاً لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة .لنقل معهما انه خطابة جديدة"¹⁷⁰

لهذا إذا نظرنا في سر نجاح " البلاغة الحالي يرجع إلى الاهتمام بوسائل الإقناع التي فرضتها طبيعة المجتمع الإعلامي المعاصر فقد ارتبطت البلاغة المعاصرة ،و خصوصا منها نظرية الحجاج و ما تعلق بها من بحوث .بمختلف الميادين الإعلامية المعاصرة سواء منها السمعي او البصري أو هما معا،لذا أصبح مفهوم الإقناع مطلباً أساسياً في كل عملية فكرية،سواء كانت هذه العملية فكرة أو مقالة أو حركة ،و هذا ما جعل هذه النظرية في استتراء متواصل"¹⁷¹

فإذا عدنا إلى الحجاج عند نوح عليه السلام و هو يحاول أن يقنع قومه بكل الطرائق ألفيناه يعتمد كل الوسائل الإقناعية المتاحة في زمنه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: 5-6].

فلاحظ أن نوحا عليه السلام اعتمد كل التقنيات التي يراها تقنع قومه، رغم عنادهم، لهذا فأَيَّ "إقناع يتوسّل حتماً بآليات متعددة يتفاوت أدراكها و الوعي بها من قبل المعنيين بل يستعين المتكلم بعناصر يعلمها المخاطبون، لكنهم لا يتوقعون حضورها في مقامهم الخاص"¹⁷². وهذا ما جعل نوحا عليه السلام يغري قومه بالنعم التي تنزل عليهم أنهم استقاموا.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝٢ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝٣ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ

169 سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه ، عالم الكتب الحديث ، اريد ، الاردن 2011 ، ص 24،

170 - عبد الله صولة والحجاج في القرآن من خلال اهم خصائصه الاسلوبية ،دار الفرائي ،بيروت وط 1، 2007، ص27.

171 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص459.

172 عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، ص470

وَقَارَأَ ١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ١٩ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٠ ﴿ [نوح: 9-20].

فكل هذه الآيات توضح بجلاء الحجج التي اعتمدها نوح عليه السلام من أجل إقناع قومه للعدول عن شركهم الذي كما راينا أمر طارئ، لأن من عادة المرسل يراعي "في خطابه الحجاجي أمرين هما الهدف الذي يريد تحقيقه والحجج التي يمكن أن يعارضه بها المرسل إليه، و التي يضعها في الحسبان في أثناء بناء خطابه، و يمحصها عند استحضر حججه فيفندها و يعارضها بالحجج التي يتوقعها من المرسل إليه، فلا يتمسك بها إلا إذا أدرك أنها تقول بخطابه الى القبول والتسليم" ¹⁷³، ويفهم من هذا أنّ المرسل يراعي الإقناع و يراعي الحجج المفترضة التي يمكن أن يعارضها المرسل إليه في خطابه الحجاجي. وهذا ما لمسناه عند نوح عليه السلام في كثير من الآيات التي قصت علينا نبي الله مع قومه، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١١٠﴾ [الشعراء: 109-110] فهو لا يسألهم أجرا وقد علم بأن قومه يؤمنون بالماديات .

فهو ليثبت دعوته استند على قدرة الاستدلال عنده بأن جرّد من نفسه " ذاتاً ثانية ينزلها منزلة المعارض على دعواه، بل يتعدى ذلك إلى النظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أوّل متلقي لما يلقي، فيبني أدلته أيضا على مقتضى ما يتعين على المستدل له أن يقوم به مستبقا استفساراته و اعتراضا له و مستحضرا مختلف الاجوبة عليها و مستكشفا امكانات تقبلها واقتناع المخاطب بها" ¹⁷⁴.

وقد سمى " اميرن و جروتندورست" هذا النوع من الحجاج التقويمي الذي يراجع المرسل فيه نفسه قبل إرسال الخطاب، « بالحوار الضمني، وغرضه درء الشك المتوقّع من المرسل إليه و يتجسد هذا في بعض أصناف الخطابات التي يستثمر فيها المرسل مقولات تدل على أنّ المرسل يستبق اعتراضات المرسل إليه، ثم يدحضها بحجج في الخطاب نفسه، وبنائه على سعة معرفته بالموضوع» ¹⁷⁵.

¹⁷³ عبد الهادي ظافر بن الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 473

¹⁷⁴ المرجع نفسه، نفس الصفحة

¹⁷⁵ المرجع نفسه، ص 474.

والآيات توضح ذلك بوضوح قال تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿أَوْعِظُكُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرُ
مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ
وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ٦٤ ﴿ [الأعراف: 63-64].

ويفهم من ذلك أنّ "المنطوق به لا يكون خطاباً حقاً حتى يحصل من الناطق صريح الاعتقاد لما
يقوله من نفسه، وتام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة، ذلك لأنّ الخلوّ عن الاعتقاد يجعل
الناطق إمّا ناقلاً لقول غيره، فلا يلزمه اعتقاده وإمّا كاذباً في قوله، فيكون عابثاً باعتقاد غيره ولأنّ الخلوّ
عن الاستعداد للتدليل، يجعل الناطق إمّا متحكماً بقوله، فلا يتوسّل إلّا بالسلطان وإمّا مؤمناً بقول
غيره، فلا يحتاج إلى برهان»¹⁷⁶. أي أنّ الخطاب لا يكون خطاباً حقاً إلّا إذا كان للناطق اعتقاد صريح
يجعله مستعداً لإقامة الدليل.

يقتضي قصد الاعتراض «أنّ المنطوق به لا يكون خطاباً حقاً، حتى يكون للمنطوق له حقّ
مطالبة الناطق بالدليل على ما يدّعيه، ذلك لأنّ فقد المنطوق له لهذا الحق يجعله، إمّا دائم التسليم بما
يدّعيه الناطق، فلا سبيل إلى تمحيص دعاويه، وإمّا عديم المشاركة في مدار الكلام»¹⁷⁷.

"ففي الأولى نعتبر الخطاب بمثابة متوالية من الجمل أو الملفوظات ، وأن

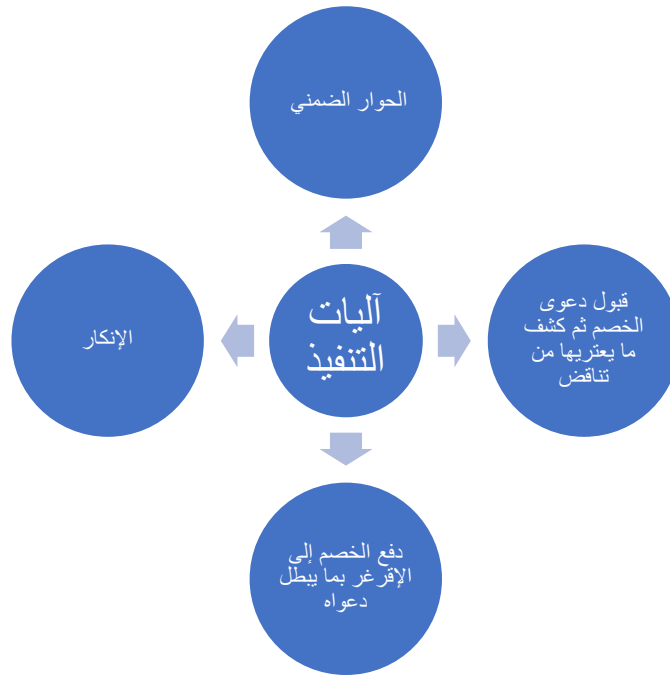
الإشكال يكمن ببساطة في بيان تأويل متوالية تلك الجمل المتتابعة أو الملفوظات. وفي

الثانية نعتبر أن الخطاب لا يختزل في متوالية من الجمل والملفوظات"¹⁷⁸

¹⁷⁶ المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

¹⁷⁷ المرجع نفسه ، نفس الصفحة

¹⁷⁸ - هل من الضروري مواصلة نهجنا في تحليل الخطابات؟ آن ريبول وجاك موشليير، ترجمة: د. حافظ إسماعيلي علوي & د. محمد الملاخ ، مجلة جامعة
أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد الثالث عشر رجب 1435 هـ - مايو 2014 م، ص199



2- آليات الإثبات:

المقدمة الكبرى: الإله الذي يستحق العبادة هو الإله الواحد الذي يجيب دعوة معبوديه.

المقدمة الصغرى: ربي هو الإله الواحد الذي يسمع دعوتي و عليه توكلني فأجمعوا أمركم النتيجة:
ربي هو ربكم و رب العالمين المستحق للعبادة وحده.

4- وجوه المغالطة في احتجاج المشركين:

أ. تحويل النقاش إلى قضايا بعيدة عن الجوهر عن طريق مغالطة (الرنجة الحمراء) { قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ

جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٣٢ } [سورة هود].

ب. إهانة أتباعه ووصفهم بأبغس الأوصاف (أراذل) { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا

بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْيَائِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ

نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ٢٧ } [سورة هود].

أ. افتراض نتائج النقاش مسبقًا وهو نوع من الاستدلال الدائري يدعى أيضًا (البدء من السؤال) .

{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلَافَةِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا

بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ٣٤ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ٣٥ هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٣٧ {سورة المؤمنون}.

ب. وجود قفزات في الاستدلال المنطقي. { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَاتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ٣٤ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ٣٥ هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٣٧ {سورة المؤمنون}.

أ. تحديد سبب وتأثير وهمي. { إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ٢٥ } {سورة المؤمنون}.

ب. التأكيد على أن الجميع يوافقون على أحد المواضيع بشكل مسبق. وهذه حجة الكافرين والمعاندين في كل مكان وزمان .

ت. خلق معضلة وهمية (مغالطة) يتم فيها تبسيط الموضوع بشكل كبير . { قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ١١١ }.

ث. استخدام الحقائق بشكل انتقائي. { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَاتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ٣٤ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ٣٥ هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٣٧ {سورة المؤمنون}.

ج. اجراء مقارنات كاذبة أو مضللة (مثل التكافؤ الخاطئ والتشبيه الخاطئ) { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ٢٤ } {سورة المؤمنون}.

ح. التعميم السريع غير المدروس (مغالطة التعميم المتسرع). { أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ٣٥ هِيَ هَاتِ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ } {سورة المؤمنون}.

5- حجاجية الأسلوب: يلاحظ على أن الأسلوب المعتمد في جميع الخطابات في الحوار الدائر بين نوح عليه السلام وقومه اعتمد على جملة من الخصائص جعلته ينماز بها.

5-1- الاستفهام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعَرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ٦٤ ﴿[الأعراف: 63-64]﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أُنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ٢٨ ﴿[هود: 28]

5-1-1- التقرير: وهو «حملك المخاطب على الإقرار بأمر استقر عنده»¹⁷⁹ بالحجة المبينة لحقيقة الدعوى المثبتة بالبيان القاطع للشك ، وتبيان على أن دعوى الخصم المحاجج أصبحت " مكشوفة ومثبتة التبنى يسهل على المناظر إبراز تفاهتها وكشف تناقضها»¹⁸⁰.

و هذا ما نلاحظه في الحوار الدائر بين نوح عليه السلام وقومه قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٤﴾ [هود: 34]. فمن

179 - الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط3، 1980، ج3/331.

180 - عادل عبد اللطيف، خطاب المناظرة في التراث العربي الإسلامي، أطروحة مرقونة بكلية الآداب، مراكش.

خلال هذه الآيات وغيرها تأكد لنوح عليه السلام أن قومه أصيب بالصمم فهم لا يستطيعون و لا يردون أن يسمعوا لكلامه و لا لنصحه فقط حكم الله عليه بالغواية بسبب ذلك.

وهنا التقرير النهائي لهذه المحاجة بين الفريقين بقوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٧﴾ [الفرقان: 37].

5-1-2- التوريط: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٩ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٠ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٢ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ١٤﴾ [الأعراف: 59-64].

5-1-3- اللوم والتوبيخ: ﴿وَأْتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ٧١ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ٧٣﴾ [يونس: 71-73].

5-2- التوكيد: أسلوب من الأساليب التي نلجأ إليها من أجل تقوية الحجج، فقد جاء في الطراز "أعلم أن التأكيد تمكين الشيء من النفس وتقوية أمره ، وفائدته إزالة الشكوك وإمالة الشبهات لما أنت بصدده ، وهو دقيق المآخذ كثير الفوائد"¹⁸¹. ونفهم من هذا أن التوكيد فوائده كثيرة فهو يزيل الشك والإبهام والأمور المشتبهة التي نحن بصدد البحث عنها ، وقد قسم السكاكي التوكيد إلى : "الخبر

181 -الإبراهيمي ، أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، جمع وتقديم : أحمد طالب الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 1997 ج1 ص 366.

الإبتدائي ، الخبر الطلبي ، والخبر الإنكاري¹⁸²، وهذا يعني أنه " لا يستعمل المرسل في الخبر الإبتدائي أي نوع من أنواع التوكيد ، لأن المرسل إليه خالي الذهن من أي حكم سابق ، إذ يكفي لذلك ما يعمل به من أن المرسل واثق من صدق خطابه ، أما الخبر الطلبي فيلقي الخبر إلى المرسل إليه مؤكداً بأداة واحدة....وفي الأخير الإنكاري يستعمل أكثر من أداة توكيد ، ليثبت صدقه حين يتصور أن المرسل إليه قد يكون منكراً¹⁸³، نحن نعلم بأن التوكيد هو «معنى يستفاد من صيغ وأساليب لغوية معينة معروفة في العربية، وغرض تواصله يستخدمه المتكلم لتثبيت الشيء في نفس المخاطب»¹⁸⁴

يقسم العلماء التوكيد إلى ثلاثة أساليب إبتدائي وطلبي و إنكاري وكل من هذه الأساليب يستخدم في سياق معين و محدد فإلى الأساليب التوكيدية إعتد نبي الله نوح في محاجة قومه؟

من خلال تتبعنا للآيات نلاحظ أن نوح عليه السلام اعتمد على الأسلوبين الطلبي والإنكاري لأن قومه كانوا معاندين يرون الآيات و ينكرونها بل زاد فوق ذلك استهزاء و سخرية و من أمثلة ذلك :

:﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ٧٣﴾ [يونس: 71-73].

نلاحظ في هذه الآيات اعتماد الشرط (إن كان... فعلى الله توكلت) وأسلوب القصر (إن أجري إلا على الله)و لم يخرج نوح عليه السلام في تعبيراته عن القاعدة التي يستند عليها و هي قاعدة التوحيد .

182 - السكاكي ، مفتاح العلوم ، تح : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية للنشر ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1407 هـ ، 1987 م ص 170.

183 - عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ص 524 .

184 - صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني، درا الطليعة، بيروت، ط 1،

2005، ص206.

{أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} ٢٦ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُنَادُوا بِرَبِّهِمْ أَوَّلَ الْآيَةِ وَمَا نَرَاكَ عَلَيْهِمْ قَادِرًا أَنْ تَنْفِذَ فِيهِمْ أَفْعَالَهُمْ إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} ٢٨ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ نَادِيًّا بِكُمْ أَنْ تُبَدِّلُوا دِينَكُمْ فَقَدْ ضَلَلْتُمْ سَبِيلَكُمْ فَأُولَٰئِكَ عَنِ الشَّيْءِ حَصِيدُونَ} ٢٩ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} ٣٠ {هود: 27-30}.

ونلاحظ أن قومه اعتمدوا أسلوب التوكيد الإنكاري باعتمادهم على بعض أدوات التوكيد مثل القصر و لكنهم يخرجوا هم أيضا عن القاعدة التي يستند عليها المتمثل في الشرك و الإيمان بالماديات و تغليبهم على القيم .

{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} ٤٠ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} ٤١ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ} ٤٢ قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} ٤٣ {هود: 40-43}.

وهذه الآيات تعطينا نتيجة الجدل و أن الغلبة لأهل القيم سواء أكان المحاججين من المعاندين أو الإمعة المتمثل ههنا في ابن نوح عليه السلام .

الخاتمة

مما لا يخفى على ذي لب؛ بأن الخطاب القرآني خطاب إلهي، لم يستطع أحد تسميته إلا كما سماه الله عز وجل في كتابه الكريم حيث سماه (الكتاب) متفرد عن غيره من الخطابات وفي كل مستوياته الصوتية، والمعجمية، التركيبية، والإيقاعية، والتداولية.

أصواته منسجمة متماسكة، ألفاظه واحدة لا تقبل التعدد وتركيباته وإيقاعاته مطلقة ولا نهائية، خطابه متفرد "ليس كمثله شيء" ورغم ذلك فقد أخذت عنه كل الخطابات والأجناس، وليس لأحد أن يأتي ولا بآية من مثله، ولقد تحدى القرآن بذلك قال تعالى: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إذ كنتم صادقين"185.

وهذا التحدي مازال مستمرا إلى يوم الناس هذا وفي كل عصر إلى أن يرث الله الأرض

و من عليها، ولهذا

وجب الاهتمام بتجديد دراسة القرآن لجعلها مواكبة للعصر، لأن المناهج تجددت فأضحى من الضروري تجديد الدراسات القرآنية بما يخدم كتاب ربنا، انتصارا له و تبياننا

185- سورة البقرة / 23.

لإعجازه ، ولهذا سنحاول استنطاق أحدث مناهج علم النص الذي هو "لسانيات النص" وذلك للوقوف على وجوه تماسكه و انسجامه و اتساقه.

ويعود دوافعي الحديث في هذا الموضوع لعدة أسباب أهمها:

1. ندرة الدراسات النصية التطبيقية للنصوص

العربية لاسيما القرآن الكريم، ولاشك أنّ ممّا

يميز هذه الدراسة أنّها خاضت تحليل نصّ

مقدس (القرآن الكريم) في ضوء منهج لسانيّ

نصّيّ.

2. الإسهام في ميدان التطبيق في علم اللُّغة النصّي

3. الرغبة المعرفية الملحة في معرفة خصائص

الخطاب لقرآني من منظور الدراسات النصية

الحديثة.

4. تبيان مظاهر إعجاز القرآن الكريم من خلال

الدراسات الحديثة.

انطلاقاً من القناعة السابقة الذكر فإنني أروم إلى تحقيق جملة من الأهداف منها:

1. تبيان بعض مظاهر الإعجاز القرآني من خلال رصد أهم وسائل اتساق النص

وانسجامه من خلال تطبيقها في القرآن الكريم.

2. زرع التقارب المفهوماتي في حقول تحليل الخطاب بين النقد القديم (البلاغة) والجديد (لسانيات النص).

3. محاولة تفسير طبيعة الصور البلاغية القرآنية وكيفية اشتغالها بإدخالها في نسق عام واستخراج البنية المشتركة بينها.

والله من وراء القصد.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

1. الإلتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط 2، دمشق دار ابن كثير، 1993م.
2. أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد، تحقيق خليل شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1418هـ - 1997م
3. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ضبطه محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط5، 1952م.
4. انفتاح النص الروائي (النص ـ السياق): سعيد يقطين، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1989م
5. البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م.
6. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ / 1988م، الجزء الأول
7. البرهان في نظام القرآن في سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران، دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1983م، الرياض.

8. تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى: المباركفورى، أبو العلى محمد بن عبد الرحمن: (181/8)، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط2، 1406هـ - 1986م.

9. التحليل اللسانى و عالمية القيم الدينية، المصطفى تاج الدين، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، ع: 32-33، رمضان 1431هـ/أوت 2010م.

10. دراسات قرآنية: قطب، محمد، دار الشروق، القاهرة ط 7، 1993م

11. دلائل الإعجاز فى علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: الإمام محمد عبده ومحمد محمود التركزى الشنقيطى، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ/1994م.

12. شعب الإيمان :البیهقي، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1410هـ - 1990م .

13. علم الدلالة: أحمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، 1982 م.

14. علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات: سعيد حسن بحيرى، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط 1997م.

15. لسان العرب: ابن منظور الإفريقى، أبو الفضل جمال الدين بن محمد، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ. - 1994م

16.لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب: د. محمد خطابي : المركز الثقافي العربي، بيروت 1991 م.

17.مباحث في التفسير الموضوعي: أ.د.مصطفى مسلم، مطبعة المعارف، ط1، 2009 م.

18.مدخل إلى علم اللغة النصي: وفولفجانج هاينه من، وديتر فيهفيجر: ترجمة الدكتور فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، الطبعة الأولى 1419هـ /1999م.

19.مدخل إلى علم لغة النص (تطبيقات لنظرية روبرت ديوجراندي وولفجانج دريسلر): إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، 1999م.

20.معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ط2 ، البابي الحلبي، مصر 1969م.

21.النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، دار القلم الكويت 1957م.

22.نحو النص (نقد النظرية وبناء أخرى): عمر أبو خرمة، عالم الكتب الحديثة، الأردن، ط1، 1425هـ / 2004م

23.نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي: د. أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، 2001م.

24. نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب: مصطفى النحاس، ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الأولى، 1422هـ / 2001م.

25. النص والخطاب والإجراء: روبرت ديوجراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998م.

26. النص، ضمن كتاب العلاماتية وعلم النص: جان ماري سشايفر، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2004م.

27. النكت والعيون: الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، (137/1)، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، د ط.

28. الوحدة البنائية للقرآن المجيد، طه جابر العلواني، سلسلة دراسات قرآنية (3)، مكتبة الشروق الدولية، ط1، 1427هـ/2006م.

29. المراجع الأجنبية

ADAM J. M :- Pour une analyse textuelle :
l'exemple du contre du graal, pratiques № 9 Metz
1976.

Linguistique et discours littéraire –
Paris, Larousse. 1976.

Matéo- Falconé : Analyse macro- –
textuelle. Pratiques № 11. Metz, 1976

Ordre du texte, ordre du discours –

.Pratiques № 13 , Metz, 1977

BAHMANI , N : – Grammaire fonctionnelle de
l'Arabe du coran ,éd BAHMANI Nadjar , R. F.A ,
. 1998

BENVENISTE . E : – problèmes de linguistique
.générale, Paris , Gallimard, 1982

BOSCH (P) : – Coherence and cohesion. In
connexity and coherence. Edited by Wolfgang
. Heidrich, Fritz NEBAUER, Berlin 1989

BUSQUESTS (J) : – Une approche de la
cohérence du discours dans la tradition de la
sémantique dynamique. VERBUM . Tome XX III,
.№ 1.PUN 2001

CAREL (MORION) : – Argumentation interne
aux énoncés. Revue de Sémantique et Pragmatique
.№ 11, Juin 2002

CHABROL . C : – De quelques problèmes de
grammaire Sémiotique narrative et textuelle , Paris ,
.Larousse , 1973

CORBLIN . F : – Défini et démonstratif dans la
reprise immédiate, Le français moderne № 51 . 1983

.

فهرس الموضوعات

02.....	مقدمة
05.....	البلاغة الخاصة بالقرآن- الماهية ومراحل المقاربة
18.....	دور الدراسات القرآنية في نمو البلاغة العربية- دلائل الإعجاز أنموذجا
33.....	قراءة حدائثة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم
54.....	الحجاج في قصة نبي الله نوح عليه السلام
90.....	الخاتمة
93.....	فهرس المصادر والمراجع
99.....	فهرس الموضوعات